هفت آسمان

عروسه ابابیل

هاربٌ من الأيام

ثروت أباظة

هاربٌ من الأيام

الفائزة بجائزة الدولة سنة ١٩٥٨ — ١٩٥٩

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
٣٢ شارع كامل صدقي - الفجالة

الإهداء

إلى أبي إبراهيم دسوقي أباظة باشا

أبي

أحس يدي تقوى على أن ترفع هذا الكتاب
إلى أعتابك. فعند أعتابك أضعه وحسبه
من مكانة.

ثروت

هـــارب مـــن الأيـــام

بقلم عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين

اعترف بأن عنوان هذه القصة وقع من نفسى موقع الغرابة فليس الهرب من الأيام شيئا يتاح للأحياء مهما يفعلوا إلا أن يفرضوا على أنفسهم الموت أو يفرضوا عليها الفعلة المطلقة لمطبقة .

فالإنسان الحى أسير الزمن يدخل فيه منذ تشـــيع الحياة ولا يخرج منه إلا حين تنقطع الأسباب بينه وبين الحياة أو حين تضطر نفسه إلى الذهول الشامل الذى يصرفه عن كل شىء ويقطع الصلة أو يخيل إلى صاحبه أنه يقطع الصلة بينه وبين الزمان والمكان وما يتعاقب فيهما من الأحداث وما يلم بالأحياء والأشياء بينهما من الخطوب .

وانى أقدر الهارب من الأيام فى هذه القصة هو هذا العمدة الذى جعله الكاتب محورا تدور الأحداث حوله والذى انتهى فى آخر القصة إلى أن يترك منصبه ويهجر القرية التى كان يدبر أمرها تدبيرا متصلا أو موقوتا . ولكن هذا العمدة لم يهرب من الأيام وإنما هرب من منصبه وهرب من القرية التى لم يحسن القيام عليها .. ورحم الله أبا العلاء الذى أنبأنا بألا مهرب

من الزمان للكائن الحى ما دام حيا وذلك فى بيته الرائع الخالد :

ولو طار جبريل بقيـــة عمره

من الدهر ما استطاع الخروج من الدهر

واكبر الظن أن هذا العنوان إنما راق المؤلف لأن فيه شيئا من الغرابة والغموض يروعانه هو أولا ويروعان كثـيرا من قرائه بعد ذلك وإن كان شيء منهما لم يرعنى . ولو انى اطلعت العنوان لانصرفت عن قراءة القصة ولحرمت نفسى متعة قيمة حقا فقد أتيح « للأستاذ ثروت اباظة » حظ حســن جدا من الإجادة مكنه من أن يفرض عليك المضى فى القصة إذا بدأتها حتى تبلغ غايتها بل مكنه من أن يفرض علىّ أنا قراءتها مرتين لم أباعد بينهما فى الزمان لأنى وجدت فيها روحا عذبا يجرى فى الفاظها واسلوبها وترتيب الاحداث فيها واستخراج بعض هذه الاحداث من بعض فى غير تكلف ولا تصنع ودون أن يعنف القارىء أو يثير أمامه ضروبا من المشكلات التى تقفه عن القراءة هنا أو هناك

وإنما القارىء يمضى فى قراءته مضيا يسيرا يوحى إليه بأن الكاتب نفسه قد مضى فى كتابة قصته مضيا يسير أيضا ثم يجد فيها شيئا من عناء أو هو قد اوجد العناء كل العناء . ولكنه استأثر به ولم يظهر القارىء على شيء منه شأن الكاتب المطبوع الذى يجد ويكد ويشقى بالجد والكد فيما بينـــه وبين نفســـه ليقدم إلى قارئه آخر الأمر اثرا ادبيا ينعم بقراءته ودون أن يحس فى هذا النعيم جدا أو كدا أو شقاء .

To: www.al-mostafa.com

وما أظن الواقعيين بين كتابنا من الشباب يرضون عن هذه القصة كل الرضى فهى لا تصور الواقع كما يصورونه وكما يحبون أن يصوره غيرهم من الذين يعرضون لكتابة القصة خاصة أو للإنشاء الادبى بوجه عام .

فهى تعرض عليك قرية هادئة مطمئنة ينعم اغنياؤها بالعيش ويشقى فقراؤها بالعيش أيضا ولكنهم قد تعودوا شقاءهم والفوه فهم لا يشكون منه ولا يظهرون الضيق به قد عرفوا أن من طبيعة الحياة فى قريتهم أن ينعم الاغنياء ويبتئس الفقراء وهم لا يريدون ولا يستطيعون أن ينكروا طبيعة الأشياء ولا أن يضيقوا بما قسم الله بينهم من الحظ .

واسم القرية نفسه يوحى بهذا فهى قرية السلام .

وانت ترى اول ما ترى عمدة القرية وقد افاق من نومه آخر الليل واول النهار وهو عجل يحرص على شيئين أشد الحرص اولهما أن يصلى صلاة الفجر قبل ان يفوته وقتها وهو من اجل ذلك يتعجل الخادم لتحضر له وضوءه قبل أن تفوته الصلاة وقد ازدحمت فى نفسه امور الدين وامور الدنيا ما اباح الله منها وما حرم يرى هذا كله طبيعيا لا غرابة فيه فهو يجرى اثناء الوضوء لسانه بهذه الادعية التى يرددها المسلمون حين يتوضأون ولكنه يقطع هذه الادعية بين حين وحين بالسؤال عن زوجه ومن ابنته ومن صالح هذا البائس الذى وعده برشوة من الدجاج لانه اصلح الامر بينه وبين زوجه التى كانت مغاضبة له .

اما الامر الثانى الذى يحرص عليه اشد الحرص فهو إرضاء حاجته إلى الافطار وهو يسأل عما سيقدم إليه إذا اتم صلاته من

الألوان والخادم تنبئه بذلك فى شىء من التفصيل كأنها تريد أن تثير نهمه وكأنها تستحضر ما سيصيبها من الطعام إذا فرغ العمدة من إفطاره .

ويستقبل طعامه تحمله إليه ابنته درية ذات الجمال الرائع والحسن البارع والرجل فرح بطعامه مبهور بجمال ابنته لا يخفى حرصه على أن يجد لهذه الفتاة النضرة زوجا غنيا موفورا ولكن صوتا يرتفع بالدعاء من وراء النافذة هو صوت كمال هذا البائس الذى يتكفف الناس ويصيب طعامه إذا أصبح كل يوم فى بيت العمدة وهو البطل الأول من أبطال هذه القصة تتكشف عنه الأحداث فجأة فهو ذليل يدعو للناس جميعا بالثراء والسعادة وطول العمر ليظفر منهم بالعطاء القليل حينا وبالزجر والانتهار أحيانا وبالسخرية والازدراء دائما وهو حاقد اشد الحقد على هؤلاء الأغنياء الذين يعيشون فى السعة وينعمون بطيبات الحياة على حين لا يجد هو ما يقيم أوده إلا بالجهد والمشقة وابتذال ماء الوجه والإلحاح فى مسألة الكرام والبخلاء .

وهو يطوف بالقرية منذ يصبح إلى أن يمسى لا عمل له إلا أن يستجدى من جهة وينبىء أهل القرية بما يجرى فيها من أحداث الخير والشر ومن شئون الموت والزواج خاصة . وهو لا يصيب صدقة من أحد إلا استنزل عليه الخير بلسانه وتمنى بقلبه أن تغوله الغوائل وأن تصب عليه الخطوب . وهو يشعر بأنه على حظ من القوة فى جسمه ومن الذكاء فى عقله وبأنه أجدر بالغنى والسعة من هؤلاء الأغنياء الذين يتكففهم والذين يستأثرون من دونه بالنعيم .

كذلك يقضي نهاره فإذا جنه الليل مضى إلى جماعة من الرفاق يجتمعون عند أحدهم على الحشيش فجلس بينهم خادما يتملقهم ويأخذ بحظه مما هم فيه . وهو لا يقبل كل صباح على بيت العمدة ليفطر فحسب بل ليستمتع كذلك من فتاة البيت بنظرة يرفعها إليها ونظرة أخرى تلقيها الفتاة إليه . فهو لهذه الفتاة محب وهو بها كلف مشغوف ولكنه يائس وأين هو منها وأين هي منه . إنما مكانه منها مكانه من الشمس لا يستطيع أن يرقى إليها ولا تستطيع الشمس أن تنزل إليه .

وكما صور الكاتب هذا الشخص الأول من أشخاص القصة تصويرا دقيقا كل الدقة ، رائعا كل الروعة فهو قد صور سائر اشخاص القصة على هذا النحو من الدقة والتحقيق . فهذا العمدة الذى يأمر فى بيته ويأمر فى قريته وينهى أيضا يهابه الناس جميعا ويشعر هو بهيبتهم له وإشفاقهم منه . هذا العمدة نفسه خائف وجل من المأمور يرهبه ويتملقه ويتقى شره ويبتغى رضاه اكثر مما يعمل معه اهل القرية .

وهو يقبل الرشوة من الناس ويغريهم بتقديمها إليه ولكنه هو أيضا يرشو المأمور ويحس إغراء المأمور له بالرشوة . فهو يأخذ من دونه ويعطى من فوقه وهو بذلك راض وإليه مطمئن وهو يدبر أمور القرية على هذا النحو من الإخاء والعطاء يخيف ويخاف ويأخذ الرشوة ويعطيها . وكل ما يعرض عليك الكاتب من صور للأشخاص والأشياء دقيق متقن على هذا النحو .

فالقصة من هذه الناحية لا تعرض عليك إلا صورا واقعة

يعرفها كل من عرف القرى فى بلادنا ولا سيما فى بعض الأوقات وفى بعض الظروف .

ولكن القصة لا تلبث أن ترقى عن الواقع شيئا . فهذا البائس المتكفف الذى أذله البؤس وأكل قلبه الحقد لا يتمنى شيئا كما يتمنى أن يصبح غنيا موفورا ورث حياته البائسة هذه عن أبيه وورثها أبوه عن جده ولكنه يطمح فى أن يكون خيرا من أبيه وجده وهو لا يجد الوسائل إلى الغنى إلا أن يصبح فاتكا يقتل ويسرق ويروع الآهلين ، وهو لا يسأل الله إلا شيئا واحدا وهو أن يتيح له أداة من أدوات الفتك .

وهو يلتمس الوسيلة إلى هذه الأداة فلا يجدها حتى يظفر بها ذات ليلة فى مجلسه ذاك مع رفاقه أولئك على الحشيش فبين هؤلاء الرفاق فاتك معروف وهو منصور الدفراوى الذى قتل فاتكا مثله منذ أيام بأمر من كبير يعيش فى قرية مجاورة . ورفاقه يسألونه فى ليلتهم تلك كيف قتل صاحبه وكيف أفلت من النيابة وكيف أخفى سلاحه ويعرفونه منه بعد إلحاح فى السؤال أنه أخفى السلاح فى قبر أخته هناك فى تلك المقبرة التى يعرفونها ولا يسمع كمال هذا الحديث حتى يمتلىء قلبه رضى وأملا .

وفى القرية ماذون صوره الكاتب فبرع فى تصويره فهو جماع للمال حريص عليه يؤثر التفريق بين الأزواج على الجمع بينهم لأنه إذا فرق بين الزوجين أخذ أجر الطلاق ثم أتيح له أن يزوج الرجل وأن يزوج المرأة فيأخذ على كل زواج أجرا . فالطلاق أربح له وأجدى عليه من الزواج . إذن هو لا يجمع بالزواج بين اثنين إلا تمنى أن يكون يوم التفريق بينهما قريبا .

وكل ما وقع إليه شيء من مال اضافه إلى ما ادخر ثم هو لا يأمن على ماله الخزائن أو المصارف وإنما يحمله دائما في منطقة يديرها حول جسمه من دون ثيابه . يحس هو ثقلها ويجد دفئها وينعم بجوارها المتصل .

وقد خرج المأذون ذات مساء ليفرق بين زوجين في قرية غير بعيدة وعاد إلى قريته وقد أظلم الليل ولكنه يسمع في الطريق صوتاً مروعا يدعوه إلى الوقوف فإذا هم أن يمضي روعه الصوت مرة أخرى فوقف وقد ملأه الفزع ولا يكاد يقف حتى يحس برد السلاح على قفاه ويسمع الصوت يدعوه إلى أن يعطي ما معه من المال . فإذا هم أن يمتنع خيره الصوت بين المال والحياة فيختار الحياة آخر الأمر وينزل عن ماله ويعود إلى أهله مسلوب المال والصحة والعقل جميعا .

ويتصل هذا النوع من الإرهاب مرة ومرة حتى تمتلىء قرية السلام رعدا وذعرا ولا يجد العمدة سبيلا إلى استكشاف هذا الشيطان الذي روع القرية بعد أمنها فأرق ليلها ونغص نهارها وأفسد أمرها كله . والمأمور يطالب العمدة بالمجرم وينذره بالوقف إن لم يدل عليه .

وإذا كان العمدة لا يعرف هذا المجرم فالقارىء يعرفه حق المعرفة فهو كمال الذي يتكفف الناس في النهار ويسلب الأغنياء أموالهم إذا كان الليل . وقد جلس كمال إلى رفاقه يتداولون بينهم الحشيش ذات ليلة ويتحدثون في أمر القرية وما ألم بها من الهول ولكن مجلسهم ذاك لا ينقضي حتى يكون كمال قد اقنع رفاقه

الأربعة بأن يكونوا مثله قطاعا للطريق يسلبون الأغنياء ويروعون الآمنين ويتخذونه لهم رئيسا .

وهم يفعلون بعد أن اقسموا على المصحف ليكتمن السر وليسمعن للرئيس وليطيعن امره فى غير تردد ولا جدال .

وقد وضع كمال لهذه العصبة قاعدة غريبة كل الغرابة تنأى بالقصة عن الواقع كل النأى فهى تأخذ من الأغنياء لترد على الفقراء أقل ما تأخذ وتستأثر بسائره تتخذ الخير والبر وسيلة إلى الإجرام والإثم . تريد أن ترضى الفقراء على حساب الأغنياء فى ظاهر الأمر . وتريد أن تعز أولئك وتسلب هؤلاء فى حقيقة الأمر . ولا تلبث العصبة أن تفرض الأتاوة على كل قنطار من القطن يباع وعلى كل ما يمكن أن تفرض عليه الأتاوة ولا تتردد فى قتل من لا يستجيب لها من الذين تفرض عليهم أتاواتها . وقد قتلت بالفعل مرة فملأت القرية فزعا وهلعا حتى اذعن المالكون لأمرها . وكان العمدة نفسه بين المذعنين وإن أخفى تأديته للأتاوة محافظة على ظاهر من احترام هيبة الحكم والسلطان .

وجعلت الألسنة تنطلق بالثناء على جماعة الخير هذه والدعاء لها فى الإعلان وتكتم القلوب بغضها ومقتها واستعداء الله عليها فى أعماق الضمائر . وأصبح كمال غنيا موفورا قد ظفر بإرضاء حاجته إلى الغنى وبإرضاء نفسه من إزلال الأغنياء الذين كان يتحرق حقدا عليهم وحسدا لهم .

ولكن فردا واحدا من أهل القرية يأبى أن يذعن لأمر المجرمين ويزمع أن يخرج قناطيره القليلة من القطن إلى المدينة سرا فى

ظلمة الليل فيبيعه ويعود بثمنه آمنا ولكن العصبة فطنت له فتربصت له فى الطريق وقتلته . وكان العمدة وأحد الخفراء عائدين من المحطة فسمعا صوت السلاح واستخفيا ولكنهما استطاعا أن يريا شخص القاتل ونبأ العمدة المحققين بما رأى وشهد الخفير وقبض على القاتل ... وافتضح بعض أمر الجماعة فأزمع كمال أن يروع العمدة حتى ينكر ما أثبت فى التحقيق . ووجد الوسيلة إلى ترويعه فاختطف ابنته تلك التى أحبها واستيأس منها وهو لا يزال لها محبا ومنها يائسا فهو لا يريد بها شرا وهو لا يطمع منها فى شىء ولكنه يأمر الذين كانوا يصحبون الفتاة حين اختطفت أن ينبئوا أباها بأن ابنته سترد عليه آمنة يوم يعدل أمام النيابة عما أثبت فى محضر التحقيق .

ويلجأ العمدة بعد خطوب إلى ذلك الكبير الشرير الذى يقيم فى قرية مجاورة والذى اتصلت المودة بينه وبين المجرمين ليرد عليه ابنته فيعده بذلك . ويتقدم إلى أصدقائه فى أن يردوا الفتاة على أبيها لأنه محتاج إليه فى الانتخابات المقبلة . ويأبى الأصدقاء إشفاقا على أنفسهم وعلى زميلهم ذلك السجين ويخرجون وقد انتقض الود بينهم وبين صديقهم ذلك الكبير الشرير . فهم قد أضمروا قتله من ليلتهم وهو قد أمر رجاله بقتلهم من ليلتهم أيضا . وتكون موقعة بين الجماعة وبين رجال الكبير الشرير فتقتل الجماعة وترد الفتاة على أبيها ويعود الأمن إلى القرية وتنتهى قصة الروع . فتنتهى معها قصة أخرى لحب لم تشر إليه .

ففى القرية فتى من أبناء الأغنياء قد أتم التعليم العالى

او كاد يتمه وابوه صديق للعمدة وبين الفتى والفتاة حب قديم يرجع إلى الطفولة وقد طلب الفتى إلى أبيه أن يخطب على العمدة ابنته فرفض العمدة الخطبة لأنه يريد لابنته زوجا أوسع ثراء وأعظم جاها من ابن صديقه . ولكن قصة الروع تنتهى فتنتهى معها قصة الحب لأن العمدة يقبل الفتى صهرا له ويرشحه مكانه عمدة للقرية ويزمع السفر إلى القاهرة هاربا من القرية ومما لقى فيها من روع لا هاربا من الأيام كما ظن الكاتب .

وقد لخصت تلك القصة فى إطالة شديدة ، وفى إيجاز أشد منها لم اجد بدا من الإطالة لأبين لك أن القصة واقعية فى تفصيلها نائية فى جملتها وفى غايتها عن الواقع . كل التفصيلات يعرفها الناس ويرون أشباها لها فى حياة بعض القرى أحيانا ولكن هذه الجماعة التى تأتلف لتأخذ من الأغنياء وترد على الفقراء ليست من واقع الحياة فى شىء . ليس من واقع الحياة أن يتخذ الناس الإثم والنكر وسيلة إلى الخير وأن يتخذوا هذا الخير نفسه وهو إعطاء الفقراء وسيلة إلى اقتراف الجرائم والآثام .

كل هذا قد ابتكره خيال الكاتب الشاب ابتكارا وليس عليه بذلك بأس ، فمن حق الكاتب أن يستجيب لخياله حتى حين ينأى به عن الواقع شيئا . ولكن ليس للكاتب أن ينسى أن قصته تنشر على الناس فيقرأها منهم الراشدون والقاصرون ويقرأها منهم العقلاء والأغرار وقد ينخدع بعض هؤلاء عن بعض ما يقرأون . وقد يصادف من نفوسهم مواطن الضعف وقد يورطهم ذلك فى بعض ما يسوؤهم ويسوء الناس بهم . والكاتب مسئول أمام

ضميره أولا وأمام الجماعة التى يكتب لها ثانية . فليس له بد من أن يستحضر تبعته حين يكتب وحين ينشر أو يذيع . ولست أدرى من أين اشتق خيال الكاتب لهذه الصورة صورة العصبة الآثمة التى تتخذ الإثم وسيلة إلى البر وتتخذ البر نفسه وسيلة إلى الإثم . ايمكن أن يكون قد قرأ كثيرا أو قليلا من أخبار الصعاليك فى جياة الجاهلية وفى بعض الأمصار الغربية بعد الإسلام . أولئك الذين كانت تضيق بهم سبل العيش ويكرهون النظام الاجتماعى الذى لا يتيح لهم تحقيق ما يطمحون إليه فيخرجون على النظام ويستبيحون لانفسهم النهب والسلب والقتل أحيانا ويعيشون فى عزلة عن الجماعة لا يدنون منها إلا ليروعوها ويـــرزأوها فى أموالها ثم يناون عنها ليعيشوا فى عزلتهم أجوادا كراما يؤمنون الخائف الذى تنقطع به الطريق ويطعمون الجائع ويعطون المحروم . يرون هذا كله مكملا لمروءتهم ومحققا لرجولتهم ويفاخرون بهذا كله فى شعرهم الذى حفظت منه كتب الأدب أطرافا لا بأس بها .

ولكن عصر الصعاليك قد انقضى فنحن لا نعيش فى البادية ولا فى القرن الأول للهجرة وإنما نعيش فى الحاضرة ونعيش فى القرن الرابع عشر للهجرة وما ينبغى لعصر الصعاليك أن يعـــود وهو لم يعد والحمد لله . أيكون الأستاذ قد قرأ شيئا من أخبار هؤلاء الصعاليك الذين يأخذون من الأغنياء ليردوا على الفقراء .

ولا يغضب الكاتب فقد كنت أحب له أن يجد صنعة أخرى غير الأخذ من الأغنياء والرد على الفقراء لأن لهذه الصـــيغة مكانها الملحوظ فى فرض الزكاة وتحبيب الصدقة إلى الناس .

وأنا بعد هذا معجب بمنهج الكاتب فى قصته ومذهبه فى هذه الكتابة باللغة الفصيحة النقية التى لا تشق على قارىء مهما يكن حظه من الثقافة وهى لا تنأى مع ذلك عن اللغة التى تليق بالأدباء ولا تنحط بهم إلى الإسفاف والابتذال .

وأنا واثق بأن كاتبنا الشاب قد بدأ طريقا طويلة أصابه شىء كثير من النجح فى أولها وما أشك فى أن حظه من النجح والتوفيق سيزداد ويعظم كلما مضى إلى أمام .

د. طه حسين

— ١ —

فى فرحة غامرة واستبشار بيوم جديد ، وفى تكاسل رخى وبطء هادىء ، تحرك الشيخ زيدان أبو راجح عمدة قرية السلام ، ونزل عن سريره لينادى الخادمة :

ـــ يا فاطمة .

وسرعان ما رجع النداء بصوت الخادمة :

ـــ نعم يا سيدى .

وصاح الشيخ فى تظاهر بالغضب يصحبه هدوء مستريح :

ـــ يا بنت هاتى ماء الوضوء ، الفجر سيفوتنى !

وفى هذه المرة رجع النداء بالخادمة نفسها تحمل إبريقا وطستا ، وأخذ العمدة يتوضأ والخادمة تصب الماء ، ولكن العمدة لم يطق أن يتوضأ فقط ، وإنما هو ـــ على عادته ـــ يسأل الخادمة عن أفراد البيت فردا فردا ، فتختلط ألفاظ الوضـــوء بألفاظ الأسئلة :

ـــ بسم الله الرحمن الرحيم ، نويت فرض الوضوء ... أين ستك ؟

فتجيب الخادمة وهى تصب الماء :

ـــ نزلت عند الفرن .

ـــ اللهم اجعلنى امسك كتابى بيمنيى ... واين ســـتك درية ؟

ـــ تعد لك الفطور .

ـــ اللهم ولا تجعلنى من اهل اليسار ، وماذا عندكم اليوم فى الفطور ؟

ـــ عندنا يا سيدى ما يرضيك إن شاء الله ، عندنا فول وقشدة وعسل . الخير كثير والحمد لله .

ـــ اللهم ثبت قدمى اليمنى على الصراط المستقيم ، الحمد لله ، هذا شيء عظيم . اسأل عنى احد اليوم ؟

ـــ لا .

ـــ الم يحضر صالح ابو سعد الله فراخا ؟

ـــ يا سيدى إننا ما زلنا فى الفجر .

فيجيب العمدة فى شبه غيظ :

ـــ ولكنه مدين يا فاطمة .. الدين يا بنتى .. اينسى احد دينه ؟

وتسأله فاطمة ذاهلة :

ـــ وهل اقترض صالح منك يا سيدى ؟

فيجيب العمدة وهو ينزل اكمام جلبابه بعد ان اتم وضوءه :

ـــ نعم .

وتسأل فاطمة وهى لا تزال فى ذهولها :

ـــ هل اقترض منك فراخا يا سيدى ؟

ويطلق العمدة ضحكة صغيرة ساخرة من غفلة خادمته ، ثم يقول وهو يثبت قلنسوته على راسه :

ـ يا مغفلة أرأيت أحدا يقترض فراخا من العمدة ؟

ـ انا الاخرى اتعجب يا سيدى !!

ـ لقد حكمت له فى قضية امس فأقسم أن يحضر لى فراخا اليوم ... اليوم فجرا ، وها هو ذا الفجر يولى وهو لم يجىء . كم أنت ثرثارة يا فاطمة ! الفجر سيفوتنى . الله أكبر .. الله أكبر ... أصلى الصبح ركعتين فرضا حاضرا لله العلى العظيم .. الله أكبر .

وتركت فاطمة العمدة يقيم الصلاة ، وخرجت هى لتجد البيت وكأنما هو آلة زرّ إدارتها هو نداء العمدة « يا فاطمة » . فالسيدة الكبيرة تعد الفرن للعيش ، والسيدة الصغيرة تعد الفطور للأب ، وإن كلا من السيدتين لفرحة غاية الفرح بهذا العمل الذى تقوم به ، وإن كلا منهما لتصرخ بأعلى صوت لها ، فكلما ارتفع الصوت كان العمل الذى تقوم به ضخما يحتاج إلى مجهود كبير ، وعمل كثير ، وصوت جهير ، وسعى حثيث ، وكرّ وفرّ .

والعمدة فرح بهذه الاصوات التى تنبعث إلى حجرته ، فكلما ارتفع الضجيج ازدادت أهمية العمدة فى بيته ... وإلا فمن أجل من تقوم هذه القيامة ؟ ومن أجل من يعد العيش والفطور ، ويملو الصراخ ويحث السعى ويكر ويفر ؟ أليس كل هذا من أجله هو ؟ رجل البيت وعمدة البلد على رغم كل سن ورمح يمكن أن يتعرض له . وينتهى العمدة من صلاته ، ويرتفع صوته فى شبه غضب ولكن فى هدوء تماما كما كان ينادى فاطمة ، ولكن ـ دون

أن يحس ـــ خالجت الصوت نبرة من حنان وحب لايطيق الأب كتمانها حين ينادى ابنته :

ـــ يا درية .

وتجيب الابنة فى مرح ولكن فى تظاهر بالعمل :

ـــ حالا يا أبى .

وما هى إلا لحظات حتى تدخل درية حاملة طعام ابيها ، ويستقبلها الأب فى عطف بالغ ...

ـــ ما هذا الجمال يا بنت ؟ من أين تزيدينه كل يوم ؟

وتجيب درية فى خجل فرحان :

ـــ طبعا يا أبى ... إن لم تشهد لى أنت فمن يشهد ؟

ولم يكن العمدة كاذبا فى هذه المرة ، فقـــد كانت درية جميلة حقيقة ، فهى بيضاء صافية اللون ، إلا من حمرة وردية تخالط بياضها بمقدار ما يجعل جمالها حيا مترنبا ، وهى ذات شعر ذهبى منسرح فى تموجات ثائرة معربدة ، وإنها لتشجع هذه العربدة من شعرها فهى لا تكبح جماعه بمنديل أو شريط ، وإنما تتركه على هواه فيلتوى حيث يطيب له أن يلتوى ويسيل حين يطيب له أن يسيل ، وهو على الحالين جميل رائع الجمال ، وإن لها جبهة طاب للشعر أن يأخذ مكانا كبيرا منها فأخذ دون رادع ، ولم يترك إلا ومضة ضيقة يتبعها حاجبان مرســـومان فى دقة رائعة ، يعلوان عينين خضراوين ينبعث منهما نور فيه ذكاء لماح وجمال آسر ، يعقبهمـــا فم ما هو بالصغير ولا هـــو بالكبير ، وإنما هو شفتان فيهما غلظة رتيبة ، تزيدهما جمالا تلك النتلة التى تصل الشفة العليا بالأنف الصغير ذى الأرنبة

المتوثبة . والوجه فى مجمله يكاد يستدير لولا ذلك الذقن الصغير الذى أبى إلا أن ينفر نفورا منعه الجمـال أن يشـتط ، تتوسط خدها الأيمن تلك النونة الصـغيرة التى تزداد وضوحا عنـدما تضحك درية ، وكم كانت تضحك درية . كـل هـذا الجمال بعلو رقبة تلعاء تفضى إلى صدر ينهد إلى باكر الشباب ، حيران بين الظهور الواضح والاستخفاء الخجلان ، ودرية فارعة الطول هيفاء غيداء ، متوثبة إلى الفرح سريعة إلى الضحك ، تستعجل الأيام والأشخاص والأشياء ، لا تطيق أن تـرى الأيام تمضى مكتملة جميعا ، تتمنى لو أن النهار أومض ثم أعقبه آخر . ثم هى تكلم الناس جميعا فلا يشعرون أنها مغرورة بجمالها هذا ، وإنما هى تغمرهم بفيض من حنان فيحسون وكأن درية يهمها من أمرهم ما يهم أصدقاءهم الأقربين .. لم تكن درية تستثنى من عطفها هذا شخصا أو شيئا ، نعم فإن من الناس أشياء ، وهل كان كمال إلا شيئا ؟ حتى هذا الشىء كانت درية تبذل له من كريم عطفها ما جعله يحس أن له وجودا ولا وجود له ، أو أن له كيانا ولا كيان له ... لقد كان العمدة محقا إذن حين فرح بابنته عندما قدمت إليه بالفطور فى باكر الصباح ، وكان محقا فى تدليلها ، فإنه هو لا شأن له بتربيتها فما كان يفهم فى أصول التربية إلا أن يقول ما يراه ، وهو يرى ابنته جميلة غاية الجمال ، ويرى الناس من حوله وحولها يحبونها . ولا يهم العمدة إن كان حب الناس لدرية مبعثه أنه عمدة أو أنها تستحق هذا الحب ، إنما كل شأنه أنهم يحبونها . ولو أن درية تركت لتدليل أبيها لكانت الطامة الكبرى ، ولفقدت هذا الحب الذى يحبونها به الناس ... لم يكن تدليل أبيها

وحده هو قوام أخلاقها ، وإنما كانت أمها من ورائها تشتد حين ترى لين الأب مائعا ، وتقسو حين ترى البنية تنحرف عما تريده لها الأم .

انطر العمدة فى يومه هذا ، وهم بأن يغير ثياب نومه ليخرج إلى الناس ، حين سمع صوتا يعلو بجانب شباكه . ولم يسأل من ذلك فقد عرف الصوت وصاحبه ... كان ذلك هو كمال أبو منصور ذلك الشىء الذى ينطلق مع الفجر يلتمس رزقه بالدعاء للناس ، وما هو بالشيخ العجوز الذى يقعده الكبر ، ولا بالمريض المقعد الذى تحتجزه العلة ، ولا هو بالعاطل المتبطل الذى يفقره العجز ، وإنما هو شاب فى ريعان الفتوة مكتمل الجسم موفور الصحة . وما له لا يكون وهو على كل مائدة واجد زاده !! وهو — بعد — صاحب صنعة تجمع بين نقيضين ، فهو رجل الأحزان والسعادة ، وهو نجم المأتم والفرح ، وهو الناعق عند الفراق الذى لا لقاء بعده فى الدنيا ، وهو البشير بلقاء يرجى فيه الاتصال ... إنه عمود الوفيات فى قريته ، فما لاقى إنسان ربه إلا كان كمال هو ناقل نبأ هذا اللقاء إلى أهل القرية ، حتى يبادروا إلى القيام بواجب العزاء ورد الجميل السابق ، ومساندة أهل الذاهب ، الحزين منهم والمتظاهر بالحزن .

وما لاقى إنسان زوجته إلا كان كمال أبو منصور هو الزغرودة ... زغرودة الرجاء التى تنطلق مبشرة باللقاء ، على حب كان هذا اللقاء أو على طمع فى مال أو جاه ، أو كان على ظروف اقتضت فتحكمت فى كيان الزواج ... لا شأن لكمال

بشيء من هذا ، وإنما كل شأنه أن يعلم بالوفاة أو الزواج فيهب إلى طبلته يعلقها إلى رقبته ويمسك بعصاه الحيزران الغليظة بعض الشيء ، ويطوف بالقرية . ولن يسمع أهل القرية نغمة حزينة أو فرحة ، وإنما هي دقات تصاحب بها الطبلة فتطلق لها صوتا ضخما يصيب بدوره آذان الآمنين من قرية السلام . نعم لقد كان كمال أبو منصور طبالا ... فهو إذن ليس متبطلا . ولكن قرية السلام قرية لا تزيد ، ولن تجد بالقرية ملاقيا لربه أو لعروسه في كل يوم . وقد تتباعد الأيام بين كل لقاء ولقاء ، ولكن مواقيت الغذاء لا تتباعد ، والبرد يأتي في موعده المعلوم . وكمال يعتقد أن الكرامة كل الكرامة هي أن يحصل على قوت يومه ليس يعنيه أي سبيل يسلكه إلى هذا القوت . فما البأس به لو أنه طاف بالأغنياء من قريته يطلب أن يعوضوه خيرا عما يفوته عليه عدم انتظام الوفاة أو الزواج ؟ ولا بأس عليه ما دام قد فكر في الأغنياء أن يكون هي مقدمتهم عمدة القرية وعميدها ، لا بأس عليه نعم ... ولكن أكان عدم اليأس وحده هو الذي ساق كمالا إلى موقفه هذا ، أم أن هناك سببا آخر ؟ .. ويحك يا كمال ! ماذا تراه يكون السبب ؟ .. حذار أن تفكر .. حذار أن تهمس نفسك ولو إلى نفسك .. ولكن لتقل الحق ، وما ضرك أن يقال وهو مجرد أحلام ؟ وهل تملك يا مسكين إلا هذه الأحلام ! ؟... نعم إن كمالا ليقصد إلى بيت العمدة لينال من بر العمدة ، وليفتتح يومه بنظرة كريمة طيبة متفضلة تلقيها إليه درية مع ما تلقيه إليه من طعام ... وهو لا يطمع في غير تلك النظرة ، وإنه

ليعتدها كرما منها يتخاذل إزاءه كل كرم يلقاه من أى كريم ، وإنه ليعتدها زاد الدنيا الذى به يعيش إلى أن تتحقق له آمال وأحلام . وكم فكر فى هذه النظرة إذا ما خلا بمغارته ! وكم وقفت هذه النظرة حائلا دون افكاره الماتية أن تنثال فى ذهنه ! ولكنه مع هذا لا يطيق الصبر عليها ... لا بأس إذن بكمال ان يقف دون الشباك فى باكر الصباح داعيا إلى الله :

ـــ أن يطيل عمرك يا حضرة للعمدة ... ويبقيك لنـــا ... يا رب .

ويجيب العمدة فى فرح مبتسم ، مسعيدا أنه مقصد يدعى له ويسعى إليه .

ـــ خيبك الله يا ولد يا كمال ... يا بنى الفجر حاضر لا يزال ... الا تنام يا ابن الملاعين ؟

ويجيب كمال فى تظاهر بالعبط والسذاجة السعيدة بهـذه المداعبة :

ـــ أطال الله عمرك يا حضرة العمدة ، ولا أرانا فيـك سوءا أبدا ... والله صحوت وجئت إليك لأنى استبشر بوجهك يا حضرة العمدة .

ـــ تعنى أنك تريد أن تجد مأتما بعد أن تشوفنى ؟

ـــ العفو يا حضرة العمدة ، إنما وجهك كله أفراح .. اللهم أطل عمرك يا رب أنت وستى درية ... الأميرة المؤدبة ...

ويسارع بالاستدراك :

ـــ وستى الحاجة .. يا رب .

ـــ طيب .. طيب .. انتظر حتى تحضر لك فاطمة لتفطر ..

ويجيب كمال بالدعاء مترسلا ، ويترك موقفه من الشباك ويذهب إلى الباب الخلفى لينتظر ما سيجود به العمدة . وتمر به درية فيسارع منتهزا الفرصة السانحة ..

ـــ صباح الخير يا ستى درية .

ـــ صباح الخير يا كمال .. كيف حالك .. ؟ الم تحضر لك فاطمة الفطور ؟

ـــ ستحضره يا ستى .. لا تتعبى نفسك .. اللهم أطـــل عمرك يا رب .

وتنصرف عنه درية إلى شئون المنزل ويظل هو حيث هو ، إن رأى عينا تطل عليه أمعن فى الدعاء للعمدة ولزوجته وابنته ، وإن أمن كيد العيون صمت وظل ينظر إلى الخـــير الذى يرتع فيه العمدة ، فيرى الدجاج الكثير ومعـــه الوز والبط ، ويلقى نظرة إلى مرتع الماشية فيرى عددا وفيرا من الجاموس والبقر والثيران والحمير والخيل .. ويل للأيام ! أكل هذا الخير فى بيت واحد تنعم به اسرة واحدة .. ؟ ! أهذا عدل يا رب ؟ ويا ليته جمع ما جمع من الطريق الحـــلال ! بل هـــو النصب والسرقة والرشوة ... عدلك يا رب ... هذا العدل الغليظ يتمتع بكل هذه الخيرات وانا لا املك شيئا .. ما ذنبى ان كان ابى طبالا فكنت مثله ؟ وكان ابوه عمدة فهـــو مثله .. ! أانا الذى خلقت ابى وجدى ومن سبقهم وقلت لهم كونوا طبـــالين فكانوا . ؟ ! اى ذنب جنيته ؟ ! آه لو تحقق حلمى .. ! اللهم حقق أملى يا رب .. شىء تافه ذلك الذى أرجو ان أحصل على ثمنه .. او أجده .. أو حتى أجد فرصة لأسرقه ..

وتنقطع آمال كمال عندما تأتى فاطمة ومعى يدها الطعـــام ، ويسارع كمال داعيا لها ممازحا :

ـــ اللهم أطل عمرك يا فاطمة أنت وسيدى وستى . .

ـــ يا أخى كل . . مالك كثير الكلام !! ؟ أتظننـــا فارغين مثلك ؟ ! كل بسرعة .

ولا يمنع هذا الرد الجاف كمالا من أن يصل مزاحه :

ـــ اللهم لا تحرمنى من يديك الكريمتين . تتزوجينى يا فاطمة ؟

وتغضب فاطمة من هذا المزاح الثقيل ، وتشـــور أن ينطق كمال ـــ وإن كان مزاحا ـــ بمثل هذه الكلمة ؛ فما كانت لتظن أن يخطر بباله هذا الفكر . وإن كان مزاحا فهى تسارع مجيبة وقد دقت صدرها بيمناها وبدا الحنق على وجهها :

ـــ هل جننت يا ولد ؟ ! ألم يبق إلا أنت يا طبال حتى تقول هذه الكلمة ؟ ! والله إن لم يبق فى الدنيا كلها إلا أنت لما قبلت أن أسمع منك هذه الكلمة .

ولا يعجب كمال من ردها هذا كان يعلمه ، ولكنه يسارع ملاطفا فى ضحكة ما زالت مازحة :

ـــ اعرف يا فاطمة . . لكنى كنت أمزح .

ـــ ولو . . لكل شىء حد . . ! أيصل بك المزاح إلى هذا ؟

ـــ لا تغضبى يا ستى فاطمة ، أنا غلطان .

ـــ طيب ، كل وأسرع .

ـــ اللهم أطل عمرك يا فاطمة أنت . .

وتتركه فاطمة وتنصرف إلى عملها ، ويفكر هو فيما كان بينه وبين فاطمة غير غاضب ، فهو قد تعود أن تصده الألسنة

وتعود أن يحتملها ، ولكنه يخاف أن يبلغ الغضب بفاطمة حد تبلغ معه سيدها بما كان من أمره وأمرها ، ولكنه لا يلبث أن يصرف هذا الخاطر عن ذهنه فهي تعلم أنه كان يمزح ولن تذكر من الأمر شيئا ، ففاطمة عاقلة ، وهي تأبى أن يرتبط اسمه باسمها وإن كان بمزاح .

يخرج العمدة إلى شرفة منزله فيستقبله شيخ الخفراء بالتحية والود ، ثم يسأله العمدة :

ـ هل أرسلت أحدا يحرث الفدانين كما قلت لك أمس ؟

ويجيب شيخ الخفراء في فرح :

ـ نعم يا حضرة العمدة .. لقد ذهب إليهما عبده أبو مسعود بعد صلاة الفجر مباشرة .

ـ وهل اتفقت معه على الأجر ؟

ـ خيرك سابق يا حضرة العمدة

ـ لا .. أنا لا أقبل هذا أبدا .

ـ لا تقبل ماذا يا حضرة العمدة ؟

ـ أيريد أن يرشوني أبو مسعود ؟

ـ لا .. ومن قال هذا لا سمح الله .. ؟ انما هو يقدم خدمة خالصة لوجه الله .

ـ آه ... إن كان هذا فلا بأس .

ـ وسيزورك الليلة إن شاء الله .

ـ زيارة لوجه الله أيضا ؟

ـــ طبعا .. طبعا يا حضرة العمدة ، لكن فقط ..

ـــ ماذا ؟

ـــ له مسألة بسيطة .

ـــ ما هى ؟

ـــ عبد الحميد جاره منع عنه المياه .

ـــ ابن الـــكلب ! والله لأمنعنه هـــو ان يروى أرضـــه ، واجعلن الماء يمر فى أرضه إلى عبده أبو مسعود .. ألم يأت صالح حتى الآن ؟

ـــ لقد رأيته راكبا حماره فى الفجر ، يمر بالبيوت ليشترى الفراخ التى طلبتها منه سعادتك .

ـــ أنا ! .. أطلب ؟ أتمثل هذا يا عبد الجليل .. ؟ أليس هو الذى قال إنه سيحضر لى فراخا اليوم ؟ ! وحين اقتسمت أن يأخذ ثمنها أقسم هو بالطلاق أنه سيحضرها هدية فى مقابل تعبى فى قضـــيته التى كانت بينه وبين امـــرأته ؟ سبحان الله يا أخى .. أأرفض الهدية وأطلق المـــرأة من زوجهـــا ؟ ألم تكن شاهدا ؟

ـــ نعم يا حضرة العمدة ولكنى نسيت . ولكنـــكَ يا حضرة العمدة ـــ بسم الله ما شاء الله ـــ تتذكر كل شىء .. هذا ما كان والله !

ـــ وأنت ماذا تنتظر ؟ ألم تذهب لتراقب الأولاد وهم يجمعون القطن ؟

ـــ لقد جئت يا حضرة العمدة من أجل هذا .

ـــ من أجل ماذا ؟

ـــ اريد أن أجمـــع القيراطين اليـــوم ، وأريد أن تمنحنى إجازة .

ـــ ماذا جرى يا عبد الجليل ؟ أتطلب الإجازة اليوم ؟ وتريدها اليوم ؟ لماذا لم تقل بالأمس حتى ارسل غيرك ؟

ـــ والله يا حضرة العمدة نسيت .

ـــ دائما تنسى .. ولكن لماذا تجمع القطن اليوم .. ؟ لماذا لا تنتظر إلى الغد ؟

ـــ لقد ذهب الأولاد فعلا إلى الأرض .

ـــ اجعلهم يذهبوا إلى أرضى اليوم ، وغدا اجمع قطنك .

ـــ أمرك يا حضرة العمدة .

ـــ وما أجر الولد عندك ؟

ـــ مثلما تعطيهم يا حضرة العمدة .

ـــ عظيم .. لقد خفت أن ترفع أجورهم فيتركونى إليك .

ـــ وماذا يفعلون عندى .. ؟ سعادتك عندك الأرض واسعة ، أما أنا فثلاثة أفدنة .. أيتركون الدائم للعاجل .. ؟ أهم مجانين ؟

ويضحك العمدة ملء شـدقيه بهذه المقارنة التى جعلته يزداد إحساسا بمكانته ، ويأمر شيخ الخفراء بالانصراف ليشرف على جنى القطن ونقل الأولاد من غيط إلى غيط ، ويكاد شيخ الخفراء يفعل لولا خفير التليفون الذى يأتى مهـــرولا مقبلا من حجرة التليفون التى كانت أمام الشرفه ... ويصيح الخفير :

ـــ انتظر يا شيخ الخفراء .

ويسأل العمدة فى قلق :

ـــ ماذا جرى لك يا ولد يا عبد الهادى ؟

ـ المأمور يا حضرة العمدة .
ـ ماله يا ولد ؟
ـ يجيء الآن .
ـ الآن يا ولد ؟ !
ـ الآن يا سيدى .
فيلتفت العمدة إلى شيخ الخفراء فى اهتمام :
ـ عبد الجليل .. أين الخفراء ؟
ـ فى الغيط .
ـ اجمعهم واسرع .
ـ أمرك يا حضرة العمدة .. ولكن الا تعرف لماذا سيأتى المأمور ؟ .
ـ علمى علمك يا عبد الجليل .. اذهب أنت الآن وأحضر الخفراء .

ولكن عبد الهادى خفير التليفون لا يجعله يذهب ، فكأنما اقسم فى صباحه هذا أن يثير الرعب والقلق فى نفس العمدة .

ـ بل انتظر يا عمى عبد الجليل .
فيقول العمدة فى ثورة مكبوتة :
ـ ماذا تريد أيضا يا عبد الهادى ؟
ـ سعادة البك المأمور يريد مشايخ البلد .
ـ أيضا ؟
ـ أيضا .
ـ ومن أين آتى بهؤلاء .. ما هذا النهار الأسود ؟

ولكن شيخ الخفراء يسرع إلى نجدة عمدته :

ـــ وما يهمك يا حضرة العمدة . ؟ سنخبر الذى نجده ، ومن لا نجده نخبر المأمور أنه ذهب إلى البندر لأنه لم يكن يعلم بمجيئه .

ـــ وهو كذلك .. اذهب إذن فادع من تجده ، ومر الخفراء أن يلبسوا ملابسهم الرسمية ويقفوا طلى طول الطريق من عند المفارق حتى البلدة ليؤدوا التحية .

ويذهب شيخ الخفراء ، وينتقل العمدة إلى منزله فى حيرة واهتمام بالغين مناديا زوجته :

ـــ يا صفية .. يا صفية .

وتجيب زوجته من اقصى المنزل :

ـــ نعم ... نعم .

فيسارع إليها العمدة حيث هى ويصرخ فى وجهها :

ـــ المأمور يا صفية ، المأمور !

ـــ مالـه المأمور ؟

ـــ وصلت إلينا إشارة تليفونية الآن أنه ...

ـــ مات ؟

ـــ لا ... سيجىء .

ـــ أكل هذا لأن المأمور سيجىء ؟ .. أهذه أول مرة يزورك فيها المأمور ؟ .. إنك منذ عشرين سنة عمدة ، وفى كل يوم يأتيك مأمور .

ـــ نعم ، ولكن هذا مأمور جديد ، ويقولون عنه إنه شديد جدا

ـــ إنهم فى كل مرة يقولون إن المأمور الجديد شديد ، ثم

يأتى ، وما إن تصل إليه الفراخ والسمن والديوك حتى يصبح لينا لطيفا كالخراف التى تذهب إليه تماما .

ـــ هذا صحيح ، ولكن لابد لنا من جس النبض أولا .

ـــ اذهب واطمئن ، وكل شىء سيكون على ما يرام .

ـــ الفطور يا صفية .. هذه أول مرة يزورنا فيها المأمور الجديد .

ـــ ألم أقل لك اطمئن .

ويذهب العمدة مهرولا ليرى كيف دبر شيخ الخفراء الأمر ، ولكن الوقت لم يتسع بعد لان يصل شيخ الخفراء إلى أول خفير ، ولابد من الانتظار .. انتظارا قلقا مليئا بالأفكار السوداء .. أى داهية ستحط على دماغه إذا جاء المأمور ولم يجد ممن طلب أحدا .. لا شك انه سيقفه عن العمودية ، ومن يدرى من أى حزب هذا المأمور ؟ لعله من الحزب المناوىء ؟ ! ولكن ما يهم ؟ إن جميع المآمير ينتمون إلى الحزب الحاكم ، والحزب الحاكم هو حزب العمدة والحمد لله .. لعله إذن شريف . يا للخراب لو كان شريفا !! . إذن فهو لن يقبل أن يتناول الفطور ، وإذن لن يقبل الهدايا التى سيقدمها له . ولكن كيف يكون مأمورا شريفا ؟ ! إنه مأمور ... ثم هم يقولون إنه مأمور قديم .. أى انه ظل مأمورا مدة طويلة من الزمان وهل يعقل أن يظل مأمورا مدة طويلة من الزمان ويظل شريفا .. ؟ لو انه كذلك لكان قد فصل منذ زمن بعيد !! أو كان على الأقل قد نقل إلى وظيفة اخرى .. ! ولكن هب يا حضرة العمدة انه صغير فى السن ، وان تلك الانباء التى وصلت إليك كاذبة ، وانه ما زال طائشا مجنونا يعتقد فى الشرف

ويتمسك بأهداب الفضيلة .. إذن فهو متعجرف ولن يمكن لك يا حضرة العمدة ان تتفاهم معه ، وإذن فهو سيقفك ، بل لعله يفعل ما هو أدهى لعله يفصله عن العمل .. يا للخراب النازل !! .. يفصله من العمودية .. تلك الوظيفة التى ظل فيها عشرين عاما .. واى مصير سيصير إليه ؟ وكيف تتزوج درية إذن ؟ ومن ذلك الذى سيتزوج ابنة عمدة مفصول ؟ .. نعم إن عنده خمسين فدانا ، ولكن ما خمسون فدانا بالنسبة للعريس الذى يرجوه لدرية ؟ .. إنه يريد شابا من كبار الاثرياء ، ابن أحد الباشوات ، فإن تواضع فابن أحد البكوات . وما الذى يدعو مثل هذا الشاب إلى الزواج من ابنة عمدة مفصول ، لا يملكُ من حطام الدنيا إلا خمسين فدانا لن تزيد ؟ ومن أين لها أن تزيد وقد فصل صاحبها من العمودية ؟ ! ويل لدرية منَ الأيام إذن لو كانَ المأمور شريفا !!

بل ويل لى انا حضرة العمدة إذا كان المأمور شريفا .. ماذا افعل ؟ .. اينتقل هذا التليفون الذى ظل ببابى عشرين عاما ؟ .. الا يدعونى احد إذن بياحضرة العمدة ؟ .. ومن ذلك الذى سيعين عمدة بدلا منى ؟ .. لعلهم ينتخبون ذلك الرجل الخرف عبد الرحمن السلامى . ذلك القزم القمىء .. ذلك الرجل النحيل ، الفقير ... نعم فقير .. إنه لا يملك غير عشرين فدانا ، ولكنه اغنى فرد فى البلدة بعدى .. ويل لى إذن .. لكن مالكَ قد يئست إلى هذا المصير الاسود ؟ إنكَ بعد لم تر المأمور .. آه إن المصيبة هنا .. إننى لم أر المأمور حتى الآن .. أكانَ لابد أن أكون مريضا حين دعا المأمور العمدة للاجتماع به ؟ أما كنت أستطيع الذهاب ؟ .. وكيف ؟ ! اكنت اريد المأمور

أن يرانى متوكئا على عصاى ، ضعيفا لا قوة بى ولا هيبة ؟ ماذا كان سيظن حينئذ ؟ لقد كان جديرا إذن أن يظننى ضعيفا غير حازم ، لا أستطيع معالجة الأمور الجلائل التى تتعرض لها العمودية . كان لايمكن الذهاب ولكننى أرسلت تلغرافا .. اجل .. إننى بهذا التلغراف أعلنت إلى المأمور الجديد أننى رجل احترم اجتماع العمد ، كما اننى غنى لأنى أرسل تلغرافا لا خطابا مع خفير . كما اننى كريم لأننى لم ابخل بثمن التلغراف المطول الذى أرسلته إليه .. اجل لقد كانت فكرة طيبة فكرة التلغراف هذه ، وكان أسلوبه ايضا عظيما .. هذا الولد ابن الشيخ حسن يكتب كتابة عظيمة .. ولد طيب فخرى ابن الشيخ حسن هذا . لقد اهتم بالتلغراف اهتماما بالغا .. اكانت فكرته .. ام كانت فكرتى ؟ لا إنها فكرتى .. نعم هو فسكر أولا ولكنى نفذتها . اجل ، ألست أنا من أرسل التلغراف .. ؟ ألست أنا من دفع أجره ؟ ولكن لا ، إنه هو الذى دفع الأجر . !! نعم وهو الذى كتبه . ولكن .. ولكن ألست أنا على أى حال من وقعه ؟ ! ولكن التوقيع لا يصل مع التلغراف . !! نعم ولكنه كان باسمى .. النهاية كانت فكرة عظيمة اقول فى التلغراف .. اعنى أن فخرى يقول باسمى : لمرض فاجأنى واضطرنى الا انال شرف ..

وحينئذ يسمع نفير سيارة قادمة من قريب .. أى نهار أسود هذا ! لقد وصل المأمور ولم يصل المشايخ .. ولا حتى الخفراء . وما هى إلا لحظات حتى كان المأمور يترجل سيارته

ذات الصندوق الضخم الرمادى اللون أمام بيت العمدة .. الحمد لله إن المأمور كبير السن .

ـــ اهلا وسهلا سعادة البك المأمور .

ـــ اهلا بك يا عمدة .

ـــ شرفت يا سعادة البك .. نورت يا سعادة البك .

ـــ شكرا يا عمدة ..

يا عمدة .. من غير حضرة .. النهاية .. اللهم اجعله خيرا .

ـــ لم تصلنا الإشارة إلا الآن يا سعادة البك ، وقد ارسلنا فى طلب المشايخ .

ـــ انتظر إذن .

ـــ اظن ان سعادة البك لم يتناول فطوره بعد .. الفطور جاهز يا سعادة البك .

ـــ ومالزوم التعب يا حضرة العمدة ؟

لقد جاءت حضرة اخيرا .. يومنا لبن إن شاء الله .. يسارع العمدة بالإجابة :

ـــ تعب يا سعادة البك ؟ .. تعب ؟ .. فطور سعادتك تعب ؟! هذا شرف يا سعادة البك .. هذا تنازل يا سعادة البك .. يا ولد يا عبد الهادى .

ويأتى عبد الهادى مهرولا .

ـــ نعم يا حضرة العمدة .

ـــ الفطور يا ولد لسعادة المأمور .. اسرع .

ـــ دقيقة واحدة يا حضرة العمدة .. دقيقة واحدة .

وينصرف عبد الهادى يتعجل الفطور ، ويجلس العمدة

To: www.al-mostafa.com

إلى المأمور يبالغ فى التحية ويمعن فى التبجيل ، والمأمور يقبل فى عظمة متواضعة وفى خجل متكبر ، ثم هو يقول وكأنما تذكر شيئا قد نسيه :

ـــ آه ... لقد كنت ناسيا .. لقد ..

ويسارع العمدة :

ـــ خير يا سعادة البك ؟

ـــ لقد نسيت أن أقول لك : الحمد لله على سلامتك .

ـــ سلمك الله وعافاك يا سعادة البك .

ـــ مم كنت تشكو يا حضرة العمدة ؟

ـــ الروماتيزم يا سعادة البك .

ـــ آه ، هذا مرض ثقيل ؟

ـــ أى والله يا سعادة البك .. وليس أثقل منه إلا المأمور الذى كان قبل سعادتك .

ويظهر الغضب على وجه المأمور ، ويثور بالعمدة ثورة جامحة :

ـــ ماذا تقول يا عمدة ؟ .. اهذا يليق ؟

إذن فقد طارت حضرة مرة أخرى .

ـــ العفو يا سعادة البك ، أستغفر الله .

ـــ اهذه هى الطريقة التى تتكلم بها عن رؤسائك ؟

ـــ .. يا سعادة البك ... يا ...

ـــ الا تعرف أن المأمور الذى كان قبلى أخى الأكبر ؟

ويقول العمدة فى نفسه :

ـــ « أنا عارف أنه نهار أسود » .

ثم يسارع إلى المأمور قائلا :

ـــ من تقصد سعادتك ؟

ـــ محمد علاء الدين .

ـــ ولكن .. ولكن يا سعادة البك أنا اقصد .. أنا اقصد الذى كان قبله .. ذلك الرجل الغاضب دائما .. فرق كبير بينك وبينه يا سعادة البك . أما أخوك ـــ حماه الله ـــ لقد كان رجلا بمعنى الكلمة .. والله لقد حزنا لنقله حزنا عظيما .. الله شهيد .

ـــ آه ، أنت تقصد عبد السميع بك ؟

ـــ آه ، هو هذا .

ـــ أعرفه .. رجل ثقيل ..

وينشرح صدر العمدة ، ويحمد الله فى نفسه ، فقد اصبح اليوم لبنا مرة أخرى ، ويقول للمأمور :

ـــ ثقيل ؟ ! .. ثقيل فقط يا سعادة البك .. أعوذ بالله .. سعادتك تعرفه إذن ؟

ـــ أعرفه .. كان رئيسا علىّ .. انت محق يا حضرة العمدة .

إذن فقد عادت حضرة .. اهلا بها .. ولكن مشكلة جديدة بسبيلها إلى الظهور .. اللهم نجنا مما نخاف .. الم يجد صالح الكلب وقتا للفراخ إلا الآن .. طارت حضرة .. لا بل طارت الفراخ .. يا أخى الفراخ فى داهية ، المهم الآن هو العمودية .. مصيبة لوكان هذا المأمور شريفا .

ويقبل صالح فى إعجاب شديد بنفسه أن أوفى بعهده واحضر ما وعد به العمدة فراخ سمان .. وما إن يبلغ صالح

مجلس العمدة والمأمور حتى يتخفف من القفص الذى يحمله بأن يضعه فى زهو أمام الجالسين ..

ـــ الفراخ يا حضرة العمدة .

ـــ أى فراخ يا ولد ؟

ـــ الفراخ التى ...

ويقاطعه العمدة فى سرعة خائنة ملتاعة :

ـــ اذهب الآن يا صالح .. سعادة المأمور هنا ولن اشترى فراخا فى وجوده .

وينقذ المأمور الموقف فى كياسة مرنة وفى دربة واعية :

ـــ والله فراخ عظيمة يا حضرة العمدة .

وكأنما كان العمدة فى غمرة من بحر متلاطم ثم وجد نفسه نجاة على الشاطىء الأمين ، فهو يسارع قائلا لصالح :

ـــ ضع هذه الفرخ فى سيارة البك المأمور يا صالح .

ولكن المأمور يستر الموقف فى غضبة واضحة الاصطناع ، يتقنها منذ تعود أن يقبل هذه الهدايا :

ـــ لا .. لا يا حضرة العمدة .. والله لا يمكن .

ـــ زوجتى طالق إن لم تقبل هذه الهدية .

ـــ يا رجل اتق الله .. حرام يا رجل .. الامر لله .. الامر لله .

وبين هذه الأيمان المتبادلة كانت الفراخ قد اخذت مكانها المستقر فى السيارة ، وكان الفطور قد اعد ، وكانت نفس العمدة قد هدأت بعد اضطراب ، فقد رضى الله عنه وارسل إليه مأمورا

طيبا مثل كل مأمور عرفه قبل اليوم ، والحمد لله من قبل ومن بعـــد .

دخل العمدة وراء المأمور إلى المنزل ، ونبت من مكان خفى ذلك الشيء كثير الدعاء كثير الحقد « كمال » ، بعد أن رأى المسرحية منذ بدئها حتى أنزل عليها الستار فى حجرة الطعام . . وسار كمال فى طريقه وهو يردد :

ـــ يا رب أهو كثير ما أطلب ؟ . مجرد مسدس يا رب أو ثمنه . . من أى مكان . . مسدس يا رب .

— ٢ —

للكتاب فى القرية اثر بعيد ، فمن بين جدرانه المتهالكة ومن تحت فلقة الشيخ العنيفة ، يخرج إلى الحياة صبيان تعلموا الجهل فأحسنوا تعلمه . فكل ما يعرفونه من الثقافة قراءة عاجزة ، وكتابة اكثر عجزا ، وهم وإن كانوا قد اخذوا على الشيخ القرآن فحفظوه إلا أنهم ابدا لم يفهموه ، وما كان لهم أن يفقهوا منه شيئا والشيخ نفسه اكثر جهلا به منهم . ويخرج هؤلاء الصبيان إلى الحياة وينظرون حواليهم فيجدون أنفسهم اكثر من ذويهم علما واكثرهم معرفة ، فيدخل إلى نفوسهم الغرور ، ولا يزال بهذه النفوس حتى يملأها لا يترك فيها مكانا لتواضع ، او منفذا لبعض حياء . وللغرور فى هذه النفوس اشكال واوضاع . فمن كان منهم ذا يسار ونعمة يرتكن إلى أب ذى مكان بعض ملحوظ ، فغروره إذن متفجر واضح لا يبقى ولا يذر ، فهو هو الأستاذ الغنى والعالم القدير .

ومن كان منهم غير ذى يسار ، ولكنه ذو اصل دارس وغنى تشتت فاصبح فقرا فبيته دوار وإن كان خاليا ، وابوه محترم وان كان فقيرا ، وأمه لا تخرج بالجرة وإنما ترسل اخته .. إن

كان الفتى كذلك فغروره إذن صمت ، واستعلاؤه بعد عن سائر الفتيان .

وأما من تخرج فى الكتاب فلم يجد وراءه أصلا ، ولم يجد أمامه مالا ، فكبره إذن خبيث ، يؤديه اللفظ اللين الناعم يغلف به السم الناقع المتراكم فى نفسه ، وكبره أيضا حقد مستعر وكره للعالم كله متمثلا فى قريته ، يخص منها ذوى اليسار وذوى الأصل ، وذوى المكان وذوى الثقافة .

ولا ينكسر الغرور فى واحد من هؤلاء إلا إذا تقدمت به السن أو أتاحت له الحياة أن يكمل تعليمه ، فإنه حينئذ يدرك مقدار ما كان يجهل ، ويرى من حوله القوم متساوين معه إن لم يكونوا أحسن منه حالا ، فيصاب غروره برعدة ، ثم ما يلبث أن ينقشع عنه .

وقد كان كمال من هذا الصنف الأخير من المتكبرين . وقد رأينا بعض كبره عندالعمدة ، فما كان تزلفه الحقير إلا كبرا ، فهو يعتقد أنه بألفاظه تلك قد طوى العمدة وضحك منه ، وأنه ببعض ألفاظ لا تكلفه شيئا — فما كانت الكرامة عنده شيئا — قد بلغ من مال العمدة ما قدر لنفسه أن يبلغ فى يومه هذا .

سار كمال فرحا بنفسه وبذكائه ، متحسرا فى الوقت نفسه على هذا الذكاء الذى أبت الدنيا إلا أن تعطله ولا تتيح له مجالا يسعى فيه ، حاقدا على هذه الدنيا البخيلة ، أشد حقده على ذلك العمدة الذى يهدى الفراخ السمان ليضمن لنفسه البقاء فى منصبه .

ولم يطل بكمال المسير فسرعان ما التقى بفئة من القرية لا تحس

به ، إلا انه هو يعتقد انها تبغضه وتحقد عليه لانها تخافه وتخشاه ، تلك هى فئة التلاميذ اولاد المدارس .

لقد كان كمال يعتقد ان هذه الفئة تحس بمبلغ علمه وتعرف انه يزاحمها فيما تعلموه فى المدارس ، وانه بذكائه وحده غنى عن تلك الكتب التى يحبسون فيها عقولهم ، وهم ينفسون عليه هذا الذكاء المتوقد الذى لم يمنعه من الظهور إلا زمن غادر ، وفقر مرير .

وهكذا شاء كمال أن يسخر من تلك الفئة المتعالمة ، فما إن رآها حتى قصد إليها فى استرخاء ساخر ، وعلى فمه ابتسامة تعلم أن يضعها على فمه منذ رأى شيخ الكتاب يستعملها إن أراد سخرية ، وفى لسانه لفظ تعلم أن يديره منذ اتخذ الاستجداء وسيلة إلى الحياة .

ـــ أطال الله عمركم ، وأخذ بيدكم وجعل النجاح نصيبكم .

وشاء أحد التلاميذ أن يتبسط مع كمال :

ـــ شكرا يا ابا كمال شكرا .

ولكن تلميذا آخر يسرع بالإجابة :

ـــ ولكن شكرا هذه لا تنفع يا ابا كمال ، والذى ينفع ليس معنا .

ويدرك كمال ما يقصد إليه التلميذ فهو يقول :

ـــ فهل انتم مفلسون ؟

ـــ يا رب كما خلقتنا .

ـــ فاشرحوا لى آية من القرآن فاكون قد افدت منكم علما ما دمت لم افد مالا .

ـــ الله .. يا أبا كمال .. وهل نحن فارغون لمسامرتك ؟

ـــ انا لا اراكم تعلمون شيئا ؟

ـــ والله إن فراغنا أحب إلينا من أن نشغله بك .

ـــ خذ يا أبا كمال قرشا وتوكل على الله .. مع السلامة .

ويأخذ أبو كمال القرش وقد ازداد إيمانا أن فئة التلاميذ تخشاه وتبغضه ، ولكن لا بأس بها ما دامت تدفعه عنها بالمال مهما يكن قرشا .

ويمشي كمال ليكمل دورته اليومية ، فقد كان يأخذ نفسه بالعمل الكثير ويجرب ذكاءه يوميا على كل فئة من فئات القرية ، وقد كان لابد له أن يدور طوال يومه حتى لا يبغته وقت الغداء خاليا بعيدا عن الناس . وكان لابد له ايضا أن يغشى الجامع ليقيم الصلاة في موعدها مع المصلين ، فإن عدم الصلاة في القرية كبيرة من الكبائر التي لا تغتفر ، وهو يحب أن يترضى عقول القوم وان ينسرب إلى قلوبهم من اى سبيل .. وقد كان كمال بعد هذه الواجبات جميعا يخلو إلى نفسه منذ الأصيل إلى الغروب في مغارة في الجبل لا يعرفها إلا هو .

وقد وجد كمال ان ثمة فسحة من الوقت قبل أن تجب صلاة الظهر ، فهو إذن يستطيع ان يعرض لقوم آخرين ، إن لم يصب منهم مالا فهو على الأقل يحتسبها عليهم مرة لم يعطوه فيها ، فيضطروا إلى إعطائه في المرة التالية .

وهكذا اخذ كمال يمر على الناس فيجد النفور والازدراء اغلب الاحيان ، أو يجد الإعطاء الشحيح بعض الحين ، أو لعله يجد ـــ ولكن نادرا ما يجد ـــ سماحة في البذل وكرما في اللقاء . ومهما

يكن اللقاء وعلى أى نوع له ، فإن كمالا يتصرف ونظره إلى السماء داعيا الله . نعم . الله الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر والبغى ويعظنا لعلنا نتقى ، يجرؤ كمال أن يتجه إلى هذا الرحاب ليسأله .. « مسدس » ، أداة القتل والعدوان ووسيلة المنكر والبغى .. ولكن من للشرير غير الله ؟ . سبحانه متجه القلوب جميعا ... حتى كمال .

كل أمله أن يجد هذا المسدس أو يجد ثمنه ، فإن لم يتيسر فلتكن بندقية أو مقروطة ، والمقروطة بندقية جار عليها الزمن فقطعت مقدمتها فلا هى بندقية ولا هى مسدس ، ولكنها عند القتل تؤدى الغرض كما يؤديان . ثم هى تمتاز عن البندقية فى أنها تختفى فى الثياب فلا يراها أحد ، وعن المسدس فى أنها تحكم التصويب وتبلغ الهدف فى وثوق . وصاحب المقروطة فخور بها أشد الفخر ، يدعى — لشعوره بنقصها — أنه قطعها خصيصا حتى يبتعد مرماها ، مخالفا فى ذلك كل ما يقول به هواة السلاح وخبراؤه . لا بأس بها أيضا لكمال ولكن ... أين هى ؟

وفى « أين هى ؟ » هذه مشى كمال يفكر ، ويمنى نفسه الأمنيات ويوسع للأحلام آفاقها ، ويمر بالفقير المعدم فينظر إليه نظرة الأخ فى الشقاء ، ويعزم فى نفسه إذا ما عثر على المقروطة وتحققت الآمال أن يجعل لهذا الفقير نصيبا من بعض ماله . ثم هو يرجع إلى نفسه يسائلها إن كانت ستسمح يومذاك ؟ فإذا نفسه تجيبه فى سرعة متوثبة أنها ستسمح ، فيعود إليها يسائلها : من أين لها هذا الخير الذى تصطنعه ؟

فلا تعجز نفسه عن الجواب ، فما هو الخير الذى يدفعها إلى البذل وإنما هى الحاجة .. حاجة ؟ أكون يومئذ فى حاجة ؟ . نعم حاجة إلى الناس وليس إلى المال .. إلى الناس ! .. إلى الكثرة الكاثرة من الناس ، فإذا سأل نفسه عن نفعها من الناس ، وماذا يفيد هو من هؤلاء الذين تريد نفسه أن يضمهم إليه ، ويبسط عليهم فضل عطفه وسابغ رحمته ؟ . حينئذ تضحك منه نفسه تلك الضحكة الصفراء التى عرفها لها منذ امتزجا فاتفقا ، ولا تسكت نفس كمال عن الجواب :

ـــ ألا تعرف ماذا تريد من الناس أيها الغبى ؟ ألم تر منصور الدمراوى كيف ينظر إليه الناس نظرة احترام وتوقير وهو القاتل السفاك ؟ ألا ترى أنهم يمتدحونه ويصفونه بالرجولة والكرم ؟ !

ـــ وهبى ذلك صحيحا .. ما شأنى أنا بمنصور أو مهزوم فيما نحن فيه ؟ !

ـــ أيها الغبى ألا تعرف أن الناس هم الذين يجعلون المجرم محسنا ، والقاتل كريما ، وما ذاك إلا لأنه يبذل لهم فنجان قهوة أو لفة جوزة ، أو كرسى دخان ، فإذا ذكرهم واحد منهم أن هذا الذى يمدحونه قاتل وإن كان كريما ، سارع أكثر الجالسين ينهون ذلك المتحدث قائلين له : ما لنا وماله إذا كان قاتلا أو غير قاتل ؟ المهم أنه كريم رحب اللقاء ، مفتوح البيت .. ألا ترى أن له بيتا والقرية جميعها تعرف عنه أنه قاتل ، ولكن واحدا منها لا يذكر عنه شيئا ؟ وكل من فى قريتنا هذه أو فيما جاورها إذا دعى للشهادة فى حادثة قتل ارتكبها منصور ذكر فى جرأة وثبات

أن منصورا كان يتناول العشاء عنده ، وأنه سهر معهم ليلته حتى طلوع الفجر يسمعون القرآن ، ويتبادلون الحديث .

وحينئذ ينتهز كمال الفرصة ليضحك من نفسه ، فيطلقها ضحكة معربدة :

ـــ أيتها النفس الغريزة أمنّى تسخرين .. ؟ ألا تنظرين إلى قولك هذا كم هو تافه لا يسنده منطق .. أظننت الشهادة التى يؤديها الشهود فى صالح منصور ، مبعثها حب هؤلاء الناس لمنصور ؟

ـــ أعرف أيها المتذاكي العبيط . إنه الخوف .

ـــ نعم هو الخوف ، ولا شيء غير الخوف .

ـــ أعرف ذلك وما هو عنى ببعيد ، ولكن منصورا يتيح لهؤلاء الشهود أن يتخذوا لخوفهم ستارا من الرجولة .. هو الخوف ما يرسلهم يشهدون فى صالح منصور ، ولكنهم يقنعون أنفسهم أنها الصداقة التى تربطهم بمنصور تحتم عليهم أن ينجوه عند الشدة ، ويساندوه عند الحاجة ، فهم يشهدون الزور ولكنهم يرضون الصداقة ، وهم تصطك أسنانهم خوفا منه ولكنهم يقولون : إنها تصطك خوفا عليه .

ـــ وما يهمنى أن يقنعوا أنفسهم أو لا يقنعوها ، ما داموا سيؤدون ما أريد أن يؤدوه .

ـــ هناك فرق أيها الساذج .. لو أرضيتهم .. أو أرضيت غالبيتهم أصبح لك من بينهم عيون على أنفسهم ، وأنت حينئذ تستطيع أن تتشدق فى يسر ، إنك تسرق ولكن المال مآله إلى الفقراء وليس إليك .

ـــ على أية حال أيتها النفس لا بأس عندى ان اذكر هؤلاء القوم حين يفتحها الكريم ونحصل على ..

وحينئذ وجد كمال نفسه وجها لوجه أمام الحاج إبراهيم الحسينى شيخ البلدة ، فما أسرع ما نفض كمال نفسه من حديث نفسه وفرغ إلى الحاج بكله :

ـــ صباح الخير يا عم الحاج إبراهيم .

ـــ صباح الخير يا ولد يا كمال ..

ـــ إلى أين إن شاء الله ؟

ـــ وما شانك انت ؟

ـــ إن كان الطريق طويلا اقطعه معك بلسانى فاسليك وتتحدث حتى تصل .

ـــ يا حول الله يا ابنى .. على كل حال قضا اخف من قضا . انا ذاهب إلى دكان الحاج على اسمع الراديو ، وكان الولد احمد أبو خليل يريد أن يصحبنى إلى هناك ولكنى هربت منه ، وها أنتذا تحل محله .. قضا أخف من قضا .

ـــ لك حق يا حاج إبراهيم ، ربنا رحمك من ثقل احمد .. ثقيل يا حاج إبراهيم ثقيل .

ـــ ثقلا لا يوصف يا كمال يا ابنى .. والعجيبة انه يقول النكات ويضحك منها ، ويعتقد ان خفة ظله لم ترد على بنى آدم ، وأنا رجل كبير .. لم اعد احتمل .. مرارتى يا بنى لم تعد تحتمل .

ـــ الم يبع لك الفدان يا عم الحاج ؟

ـــ ابدا .. مصمم على الا يبيع هذا الفدان ، والفدان يا كمال واقف فى وسط أرضى كالعقلة فى الزور .

ـــ وكم عرضت عليه ؟

ـــ ثمانمائة جنيه .

ـــ وكم يطلب ؟

ـــ الفا .

ـــ له حق .

ـــ اما إنك بارد يا ولد يا كمال . الفدان فى أرضى إن لم اشتره انا فلن يشتريه احد ، وأنا مع هذا لا اظلمه وإنما ادفع له ثمانمائة جنيه بينما لا يساوى الفدان اكثر من سبعمائة ، فيستغل فرصة رغبتى فيه ويطلب الفا .. الفا مرة واحدة وتقول لى أنت له حق . اما إنك بارد مثله .

ـــ يا عم الحاج أنت لم تعرف قصدى .. أنا أقصد أنه محق فى ان يسوق الدلال ما دمت تعرض وتساوم .

ـــ وماذا اعمل ؟

ـــ مر .. انت شيخ البلد .. انت والعمدة على درجة واحدة .. ارسل فيه بلاغا إلى المركز ، وحين يجره العسكرى يترك اربعمائة بدلا من مائتين .

ـــ اما إنك شيطان يا ولد يا كمال .. أهذا معقول ... ؟ لا .. حد الله بينى وبين الفدان ..

وينقطع الحديث عند هذا الحد فقد وصل المتحادثان إلى المقصد .

وقد كان دكان الحاج على أو الحاجعلى ـــ كما ينادونه ـــ

منتدى الصفوة المختارة من القرية ، يتحلقون فيه حول الراديو ويشاركون ساسة العالم وساسة مصر فى تصريف الأمور ، وان تكن هذه المشاركة تقف عند منتداهم هذا إلا انها تريح اعصابهم وتهدا لها خواطرهم ، وتجعلهم يعتقدون انهم اهل تصريف وقوام امور .

بلغ الحاج إبراهيم وكمال المنتدى ، وكان الجالسون هم الحاج على الطحان ، والشيخ رضوان العكلى المعلم الإلزامى ، وخطيب الجمعة ، والشيخ عبد الودود مأذون البلدة الذى يملك فيها عشرة افدنة كاملة فى طريقها دائما للزيادة . وقام الجالسون يحيون الحاج إبراهيم ، ولكن الشيخ عبد الودود لم يقبل أن يسير الحاج إبراهيم فى صحبة كمال فهو يقول :

ـــ والله طيب يا شيخ البلد .. الم تجد غير كمال ليسايرك ؟

وغضب كمال لهذا التجريح من رجل لم ياخذ منه فى حياته مليما ، ولا ينتظر أن يصيب منه فى حياته مليما .. غضب كمال وكان غضبه فى محله .. فهو لا يغضب من أحد إلا إذا كان من غير المحسنين عليه ، وممن لا ينتظر ان يحسنوا إليه . وقد كان الشيخ عبد الودود من هؤلاء الذين لم تكن بينهم وبين كمال معاملة .. قال كمال :

ـــ وماله كمال يا عم الشيخ عبد الودود ؟ ؟ إن كنت انت لا ترحم اترك رحمة ربنا تنزل .

ـــ الا تعرف ماله كمال .. ؟ شخص ضائع بلا صنعة !

ـــ سامحك الله يا شيخ عبد الودود .

ـــ لا شأن لك بالله .

ـــ ولماذا ؟

ـــ لأن الله يحب العاملين ولا يحب المتسكعين الخاملين .

وكاد النقاش يحتدم ، وكاد يصل بالشيخ والفتى إلى ما لا تحمد عواقبه ، فلم يجد الحاج إبراهيم بدا من أن يصرف كمالا فينصرف بعد أن يقول للحاج إبراهيم :

ـــ والله لأجل خاطركَ يا عم الحاج إبراهيم ، لأجل خاطركَ فقط .

ينصرف كمال ، ويقبل الحاج إبراهيم على الجماعة فى إقبال على الحديث ، وعلى تصريف الأمور السياسية والاقتصادية .

يتركَ كمال هذا المجمع الكريم من قادة القرية وزعمائها ، معزيا نفسه أن له مجلسا آخر بين قوم آخرين يعرف لنفسه مكانا بينهم ، ومهما يكن هذا المكان قاصيا غير كريم إلا انه ـــ على أية حالٍ ـــ مكان .

— ٣ —

فى اقصى القرية بيت قائم بذاته لا يحيط به سكن ، اختار صاحبه مكانه بعيدا عن الناس ، ولم يكن اختياره هذا عفوا او ليفكر فى خالق الليل والنهار — كما يطيب له ان يقول — وإنما اختاره خصيصا ليعصى فيه ومنه خالق الليل والنهار .. معصية لا يتوقف شرها على مرتكبها وإنما هو يبيع المعصية لكل راغب فيها ، مدمن لها ، متكالب عليها .

يملك هذا البيت هلال النمرود ، وفى هذا البيت كان يتاجر فى المخدرات ، وفى هذا البيت تزوج النمرود من سلمى بعد أن احبها ، وقد بنى لها هذا البيت من المكاسب التى سكبتها عليه تجارته .

وقد ظل النمرود يمارس تجارته فى بيته هذا بعد زواجه من سلمى وظلت امواله تتكدس وتزيد ، ولكنه قابض يده فلا يخرج منها إلا ما يبقى له ولزوجه الحياة . وكانت زوجه تحاول جهدها ان تفك يده المغلولة تلك ولكن هيهات ، فهو يحافظ على تلك الأموال حتى ينمى تجارته ، فقد كانت تجارته تلك حبيبة إلى نفسه فقد اكسبته مالا وزوجة وبيتا ، بل اكسبته ايضا اسما ، فإن اسم النمرود الذى اطلق عليه قد جاءه من تجارته ، ومن مهارته فى تصريف بضائعه .

لم تستطع سلمى أن تنجب لزوجها بنين أو بنات ، فكانت تجارته عنده هى البنين والبنات ، فلها وحدها يختزن المال ، ولها وحدها يسهر الليالى الطوال ويجوب المخاطر ويغشى الأهوال .

والزوجة قابعة فى بيتها فلا مال فى يدها ولا ولد لها ولا زوج بجانبها ، فسرعان ما زالت عن هلال لهفة الحب الأولى وأصبح لا يرى فيها إلا امرأة عقيما لا عمل لها إلا أن تفتح عليه أبواب الخراب .

وهكذا وجدت سلمى نفسها قد فقدت كل شىء ، ولم يبق لها إلا تركة حواء .. امرأة .. امرأة عطشى إلى الحياة .. مشوقة الى الولد .. مهجورة من الزوج .. متجردة من الحياة .. والليل طويل والزوج بعيد والشباب فوار ، والذئاب كثير والبيت منفرد .. فخانت .

خانت سلمى زوجها .. ولم تجهد نفسها فى اختيار الرجل الذى لا تتم الخيانة إلا به ، فالبيت فى الليل مقصد زوار ، والزوار لهذا البيت لا يحتاجون إلى إغراء فهم يشترون المخدرات ، وهى من تبيع لهم والحديث بينها وبين المشترى سائر لا شك إلى الطريق . وقد كان المشترى يعرض وكانت البائعة تعرض عن كلامه ، ولكنها حينما أرادت أن تخون أقبلت ، وأصبح المشترى يعلم — وهو يشترى — أنها تبذل له مع المخدر نفسها ، وأصبح وهو يشترى البضاعتين يدفع الثمن لكليهما جملة ... فتأخذ سلمى ثمن بضاعتها وتحفظ لزوجها ثمن بضاعته .

وظل الأمر كذلك حتى عرض لها ضمن المشترين شاب

صغير ، لم يقف الأمر بينهما عند البيع والشراء بل اخذ طريقه إلى الإعجاب ، فأصبحت تمنحه بضاعتها بغير ثمن ، بل لقد منحته أيضا من بضاعة زوجها دون أن تتقاضاه ثمنها ، وإن كانت هي تعطي زوجها ماله كاملا .

وجدت سلمى في هذا الشاب كل ما كانت تفقده ولا تجده ، ووجد هو فيها كل ما كان يؤمل فيه ، فقد كان الفتى يحب أن تكون له زوجة في المساء إن خلا المساء من العمل ، ولا يحب أن تكون له زوجة في الصباح مهما يكن صباحه فارغا . إلا أن سلمى كانت تريد لنفسها زوجا دائما لا يريم عنها في صباح أو مساء ، فهي تطلب إلى الفتى أن يتزوجها فيقول :

ـــ كيف ، وزوجك ؟

ـــ وما شأنك ؟

ـــ أيطلقك ؟

ـــ وهل لابد له أن يطلقني حتى تتزوجني أنت ؟

ـــ إذن فما معنى طلبك هذا ؟ ألا اتزوجك أنا في كل ليلة ؟

ـــ معناه أن نعيش معا في الصباح والليل .

ـــ وأين يمكن أن نعيش معا ؟

ـــ في أي مكان .

ـــ نهرب معا إذن !

ـــ ولم لا ؟

ـــ والله ...

ـــ أنت متردد .

ـــ لا ارى داميا لهـــذا فنحن هنا مبســـوطان والحمد لله ، لا ينقصنا شيء .

ـــ لا ينقصك أنت .

ـــ فما ينقصك انت ؟

ـــ رجل .

ـــ الا يكفيك رجلان ؟

ـــ تقصد نفسك وزوجي ؟

ـــ السنا رجالا ؟

ـــ اما هو فلا وجود له على الإطلاق ، واما انت ..

ـــ نعم ، واما انا .. ؟

ـــ واما انت فلا تاتى إلا مع الظلام ، ولا اراك إلا فى نور المصباح الباهت .

ـــ وفيم تهمك رؤيتى فى نور المصباح ؟

ـــ اريد ان املكك جميعا ، اريد كلك ، اريد ان احس بالرجل الوحيد الذى احببته ، اريد نفسى ان تطمئن إلى هذا الركن الذى اخترته لحياتى ، اريدك .

ـــ وكيف نصل إلى هذا الأمل وانت زوجة لرجل آخر ؟

ـــ زوجة لوهم مضى وحلم تبدد ، لا اراه ـــ حين اراه ـــ إلا وهو بعد نقوده ، ويسلم بضاعته ، او يتسلمها .

ـــ ولكنك على ذمته !

ـــ وما يهمك ؟

ـــ اخاف أن يتعقبنى .

ـــ اتخاف انت ولا اخاف انا ؟

ـــ أنت تريدينني جميعا ، وأنا لا أريد منك إلا ما أنال .

ـــ أيكفيك هذا مني ؟

ـــ وهل هناك أكثر من هذا ؟

ـــ نعم هناك .

ـــ ماذا ؟

ـــ أموال وفلوس ، نهرب معا ، ونتاجر معا .

ـــ وزوجك ؟

ـــ ألا تزال خائفا ؟

ـــ والله مسألة الفلوس هذه ..

ـــ مالها ؟

ـــ عظيمة .

ـــ إذن ..

ـــ متى نهرب !

وهربت الزوجة مع بضاعتها جميعا من مخدرات وآدميين ، وعاد الزوج فوجد البيت خاليا .. فخرج يسأل الناس عن زوجته فوجد بلاهة عن الإجابة وخوفا من الإفصاح . وطالعه من وجوه الرجال إشفاق فيه كبر ، ومن وجوه النساء بسمة فيها اعتزاز وفيها ألم . ولكنه التقى بالاحتقار من الرجال والنساء جميعا . ومن ضجيج البلاهة والخوف والإشفاق والكبر والعزة والاحتقار عرف النمرود الإجابة ، ولم يعد إلى بيته ، بل لم يقم في البلدة جميعا وإنما تركها من فوره ، ولم يعد إلا بعد ثلاثة أشهر وفي يده جريدة تتحدث عن امرأة قتيلة لم تعرف شخصيتها ،

وراح هو يؤكد ان هذه القتيل هى زوجته ، وأما القاتل فقد كان يترك لذكاء سامعه أن يستنتجه .

وهكذا جعلت هذه الأكذوبة من خزيه فخارا ، ومن خجله تبجحا ، ومن هربه عن القرية إقامة فيها مطمئنة ، يحيط به من كل مكان تملق راجف واحترام مذعور .

عاد النمرود إلى بيته القائم فى أقصى القرية ، وجعل منه منتدى لأبناء الليل يجتمعون فيه على غابة تغيب بهم عن الوعى .

وكان العمدة على علم بهذا المنتدى ، ولكنه يغضى عنه عينا مشغولة بالمأمور والمعاون والرشاوى الصادرة عنه أو الواردة إليه .

وكان منصور الدفراوى كبير مجرمى الناحية هو زعيم المنتدى ، يتحلق حوله المعجبون والخائفون من سيرته ، والمتملقون الذين يريدون أن يتقنوا فن النفاق ويمرنوا عليه . ولكن هؤلاء جميعا كانوا يلمون بالجلسة فلا يلبثون إلا قليلا ثم ينفضون عنها ، وتخلص الجلسة إلى الأربعة الزعماء : منصور الدفراوى ، وهلال النمرود ، والزهار عبد السيد ، ونو الكحلة .

أما منصور فهو القاتل المحترف ، وأما هلال فهو الزوج الذى انصرفت عنه زوجته والذى ادعى أنه قتلها ، وأما الزهار ونور فنحن فى طريقنا إلى الالتقاء بهما .

فالزهار فلاح قديم دخل القرعة العسكرية ، ولكنه ما لبث أن قضى فترة الخدمة العسكرية فى الحبوس ؛ فقد تعود منذ كان فلاحا أن يسرق المالك ما أمكنه إلى ذلك سبيل . أما اليوم وقد دخل العسكرية فإنه لم يجد مالكا ليسرقه إلا الحكومة والزملاء ،

فسرق من كليهما وتعود الحبس . ولم يتعود من العسكرية إلا اللمم ، فقد تعلم كيف يصيب الهدف ، وتعلم كيف يسير فى دقة وكيف يميل بالطاقية الصفراء وكيف يفتح الزر الأول من أزرار الجلباب ، وتعلم من العسكرة انه لن يمسك بالفأس مرة اخرى . وتعلم من العسكرية العجز الكامل عن اى عمل يمكن أن يعهد به إليه اللهم إلا الوقوف فى الطابور . ولما كان الزهار لا يجد طابورا خارج العسكرية ، ولما كان لا يجديه نفعا طاقيته المائلة أو زره المفتوح أو مشيته المنتظمة ، فإنه لم يجد عملا آخر الأمر إلا السرقة التى كانت عنده ـــ قبل العسكرية واثناءها ـــ هواية ، فجعل منهـا احترافا وانضم إلى جماعة المخدرات مساعدا للنمرود فى تجارته ، وعضوا فى منتداه ، ولكن تابعا وليس متبوعا ينفـذ الاوامـر ولا يصدرها .

وقد قامت بينه وبين سـعدية أم الخير قصة حب ، كان هو الطرف الوحيد فيها . فلم تكن الطاقية المنحرفة ولا الزر المفتوح ولا المشية المنتظمة ولا إجادة التصويب ، لم يـكن شىء من هذا ليغرى سعدية به .. ولكنه أصر على حبها فلم تبـال هى ولا ابوها إصراره ، وتزوجت من صالح أبى سعد الله .

واما نور الكحلة فهو رجل حديث التخرج من سجن المديرية . ولقد سجن فى واحدة من جريمتين احداهما يرويها هو والأخرى ترويها ملفات القضية القابعة فى المحكمة ، والتى لا يطلع عليها إلا المعنيون بالأمر . أما التى يرويها هو فهى انه كان يحب فتاة تسكن فى جواره بالبندر ، وكانت البنت لعوبا تحب أن يعجب الناس بها ، وكان هو يرقبها ليل نهار . فحين عرفت القـوم

انها لا تسير إلا وعينه رقيب عليها ، انفضوا عنها وتركوها خشية عيونه الرقيبة وجبروته وعنفه ، وخشية سطوته وسلطانه ، فقد كان ساعي الباشا المدير . حتى كان يوم وقعت فيه مشادة بينه وبين ولد تافه يعمل كاتب حسابات في المديرية ، فاغتاظ منه الكاتب وأراد أن يفجعه في أعز شيء لديه ، فتقدم للجارة يخطبها ، فلم يجد نور بدا من أن يطلق الرصاص على الكاتب ولكن الرصاصة أخطأته ، لأن السلاح كان قديما ، فحبس نور .. تلك هي رواية نور .

واما الحقيقة فهي أن نورا كان يعمل ساعيا بمكتب المدير حقا ، ولكنه لم يحب فتاة ولم يطلق رصاصا ، وإنما سرق حافظة المدير في أول الشهر وعاش المدير شهرا يقترض . ولم يتمكن نور من إخفاء الحافظة بعد أن صرف النقود فقبض عليه وأودع السجن ، وشددت العقوبة لا لأن الحافظة حافظة المدير ولكن لأنه ساعي ، وكان المفروض أن يكون أمينا على الحافظة لا سارقها .

وعاد نور إلى القرية يعيش على ريع فدان وعشرة قراريط جمع ثمن أغلبها من نفحات القوم في المديرية ، تلك التي كانت تعطى له عن كرم ، أو تلك التي كان يختلسها اختلاسا كلما غفلت عين صاحب مال عن ماله .

تلك هي الجماعة أكاد أكون قد ألممت بها جميعا لم أترك منها أحدا ، وإن كنت قد تركت شيئا لم أذكره فما أظنني قد أسقطت جليلا ولا أغفلت أمرا ذا بال . وهل كانت تلك اليد الدائرة بالمخدر إلا يدا تمتد عن كمية من العمل تنظر إليها الجماعة أو لا تنظر ،

فهى بقعة فى الأرض لا تزيد . فأسرار الجماعة كلها تدار على مسمع من هذا الشيء يكادون لهوان شأنه لا يحسن ان معهم خامسا ، فجرائم القتل أو السرقة أو تجارة المخدرات جميعا تلقى ، ويخيل لأعضاء المنتدى انها تلقى إلى الأرض ، فما كانوا يحسون ان فى وسطهم أذنا تسمع . ألم أقل لك إنهم ما كانوا يحسون بصاحب الأذن جميعا فكيف بأذنه .

كان ذلك الشيء هو كمالا . وكان فى جلسته تلك يقدم إلى نفسه أمتع ما تتمتع به نفسه ، فلم يكن أحب إليه من تلك الجلسة يستمع فيها إلى هؤلاء الجبابرة وهم يروون أفاعيلهم وكيف نجوا منها . ولم يكن كمال غبيا كل الغباء فقد كان باستطاعته أن يعرف الكذب من الصدق فيما يقولون ، ولكنه كان يطلق إعجابه الضخم بأعمالهم جميعا ما وقع منها وما لم يقع . وقد كان مديحه شيئا مفروضا فى الجلسة ينتظره كل منهم ولا يجيب عليه ، وإنما يستقبله فى صمت فرحان ، ويمضى فيما كان يقول وكان أحدا لم يمدح ، أو يقاطع ، أو يبذل أقصى غايات الجهد ليبلغ بنفاقه إلى أروع الإتقان .

هذه هى الجماعة التى كان ينضم عليها بيت النمرود فى كل مساء .

وكان قد مضى على الجماعة عدة أمسيات لم تشرف فيها بجلسة الدفراوى فى صدرها . وكانت الجماعة تقول فيما بينها إن لديه مأمورية فى بلدة ما .

حتى كان ذلك اليوم فإذا هم يتناقلون فيما بينهم أن الفرماوى قد قتل ، فيسأل الكحلة :

ـــ قتل ؟ من قال ؟

ـــ انا كنت فى الزمارنة ، كنت ابيع بيعة إلى الطحاوى وعرفت انه قتل .

ـــ إذن فالدفراوى نجح فى مهمته !

ـــ وهل كنت تشك فى هذا ؟

فقال الزهار فى اعتزاز :

ـــ يد الدفراوى قاعدة لا تخيب ابدا .

فقال كمال :

ـــ تسلم ويسلم صاحبها البطل ! . قل لى يا زهار : من منكما امهر فى التصويب انت ام منصور ؟ .

ويقول الزهار :

ـــ اظن اننى امهر لاننى تعلمت التصويب على اصوله فى العسكرية .

فقال نور :

ـــ لابد ان الدفراوى سيأتى الليلة .

فقال النمرود :

ـــ حتما ، فهو يجىء إلى هنا بعد كلّ حادثة .

فقالَ الزهار :

ـــ ولكن السلاح الذى يحمله فى هذه المرة ليس سلاحا رخيصا ، واخشى ان تضطره المحافظة عليه إلى حمله مدة طويلة فيضبط معه .

فقال النمرود :

ـــ ومن الذى يضبطه معه ؟ الحكومة ؟ ! ما احب إليها ان

(هارب من الايام)

تتخلص من الفرماوى ، والرجل الذى استأجر الدفراوى رجل يحمى رجاله .

فقال نور :

ـــ لطيف بك حماه الله رجل قليل المثال ، ولكن لماذا غضب على الفرماوى ؟ ألم يكن من رجاله ؟ .

فقال النمرود :

ـــ كان ، وكان لطيف بك يترك له ربع خمسة افدنة . فلما قال له بهجت الدلونى دخله الغرور وراح يطالب لطيفا بعشرة افدنة ، وهدده بأنه سيخبر اهل الدلونى . لطيف بك ـــ طبعا ـــ لم تعجبه الحال . أرسل لصاحبنا دون أن يعلم الفرماوى .

وقبل ان يسأل نور سؤالا آخر دخل منصور الدفراوى جامد الوجه يغطى مشاعره بكثير من الزهو واللامبالاة ، واستقبله الاعضاء بكثير من الإكبار والتحايا ، وراح كل منهم يهنئه بهذا النصر الجديد الذى أحرزه ، ولكن الزهار لم ينس موضوع السلاح فهو يسأل الدفراوى .

ـــ كنت فى كل مرة ترمى السلاح فى الترعة ، ولكن سلاحك فى هذه المرة من النوع الغالى .

ـــ والله لم يهن علىّ .

ـــ فماذا فعلت به ؟

ـــ وضعته فى التلفيعة وخبأته فى المقابر .

ـــ وهل قتلت الفرماوى عند الجبانة ؟

ـــ والله .. الرجل كان صبدا سهلا . طلبت إليه أن نخرج لنتمشى قليلا فقال : والله يا منصور لولا انك أخى ولا أشك

عليك أبدا ما خرجت معك . فقلت له لماذا ؟ قال الرجل ـــ يعنى لطيفا بك ـــ فى هذه الأيام يكرمنى إكراما غير معقول . طلبت ان يعطينى عشرة أفدنة فاعطانى خمسة عشر . طلبت جاموسة فأحضر لى جاموستين . وأنا عارفه . ويهيأ لى أن المسألة فيها شيء . فقلت له وماذا فيها ؟ ألست رجله وواجب عليه أن يكرمك ؟ .

ودار بيننا الحديث ولم يلتفت إلى الطريق حتى وصلنا إلى الجبانة ، فإذا الفرماوى يقول : الله إلى اين يا منصور ؟ قلت : إلى هذه . قال : وما معنى مجيئنا للجبانة يا منصور ؟ قلت له : كلنا لابد من مجيئنا إلى الجبانة يا فرماوى ، كلّ إنسان لابد أن تكون الجبانة آخرته . قال : لا أفهم كلامك . قلت له : افهمك . وأخرجت المقروطة من تحت الجلباب . حاول أن يمسكَ بها . كنت أنا قد أطلقت العيارين فى قلبه . أراد أن يقول عملتها يا منصور فلم يكمل « منصور » وودع .

فصاح كمال على الفور وكأنما كان يضع الكلمة على شفتيه :

ـــ سبع يا ابنى سبع والله !

وصاح النمرود :

ـــ يا سلام يا أولاد لو ذقتم لذة العيار الخارج من ماسورة بندقيتكَ لقلب عدوكَ ، يا سلام يا أولاد .. مريح .

وحينئذ راى الزهار حشرة سوداء تمر بجانب حذائه فهمّ بقتلها ، فسارع الدفراوى ينهاه قائلا :

ـــ اتق الله يا شيخ ، ماذا عملت لك ؟ لماذا تقتلها .. ؟ اقذف بها بعيدا ولا تقتلها ؟

وتصايح الجالسون إعجابا بشفقة الزعيم الدنراوى .

ولكن نورا لا يزال يختزن اسئلة لم يفرغها فعاد يسأل :

ـــ ولم يسمع أحد انطلاق البندقية ؟

فقال منصور :

ـــ الطلقات كثيرة فى هذه الأيام ، فالخفراء يحرسون القطن ويطلقون الأعيرة فى الهواء لإخافة اللصوص .

فقال الزهار :

ـــ والله فلوس ترمى فى الهواء ، وهل يخاف أولاد الليل من اعيرة الهواء ؟ ! .

فقال نور :

ـــ وأين قضيت ليلة البارحة ؟

فقال منصور :

ـــ قضيتها فى دوار عمدة الفرايحة .

فقال النمرود :

ـــ ونعم الرجل ، لا يمكن أن يعترف بشىء ابدا . لابد انهم سألوه اليوم .

فقال منصور :

ـــ وقال إننى قضيت اليوم كله معه .

فقال نور :

ـــ فأفرج عنك فى الحال .

فقال الزهار .

ـــ إنهم لم يقبضوا عليه .

فقال منصور :

ـ بل قبضوا علىّ (*)

فسأل النمرود :

ـ ولماذا ؟

فقال الدفراوى :

ـ المباحث سمعت من البلد أنه خرج معى ، وحاولت أن أعرف من هذا الذى أخبر المباحث فلم أستطع الاهتداء إليه ، ولكنى وراءه لن أتركه ابن الكلب . مشينا وشفنا الدفراوى يشى به الناس .

فصاح كمال :

ـ جاءك الموت يا تارك الصلاة . . إنما قل لى يا أبا الرجال ، كيف ستصل إلى المقروطة إذا أحببت أن تصل إليها ؟

ولم يشأ منصور أن يجيب كمالا فقد رأى أنه فى هذه اللحظة بالذات أكبر من أن يجيب أى إنسان ، فما الخطب إذا كان السائل كمالا ؟ ولكن نورا أعجبه بسؤال كمال فأعاده على النمرود ، فأراد أن يسكت فألح عليه نور بالسؤال ، فقال فى مزاح قريب كل القرب من الجد :

ـ والله يا أولاد الكلب إذا ضاعت المقروطة لألزمن ثلاثتكم بدفع ثمنها . وضحك الجميع فى فرح غامر أن منصورا يمزح . ولكن كمالا فى هذه المرة لم يضحك فقد كان ملهوفا إلى سماع ما سيقوله منصور ، وتكلم منصور أخيرا . .

ـ طيب سأقدم تعميرة على حسابى لمن يقول بماذا ميزت مكان المقروطة .

واشتد السرور بالجماعة من هذا التبسط ، وراح كل منهم يعرض ذكاءه ، ولكن منصورا قال فى آخر الأمر :

ـــ كلكم حمير .. الم يتذكر واحد منكم ان اختى مدفونة فى جبانة الزمارنة . وضعت المقروطة مع اختى ، اختى الحديد مع اختى من أمى وابى .

وانطلقت ضحكة عالية قوية من هذه المقابلة الرائعة التى افتر عنها ثغر البطل . وفى هذه المرة كانت ضحكة كمال اشد قوة وأعلى ضجيجا من ضحكاتهم جميعا . إنها تحمـــل الكثير عن صدره وإنها تبدأ به عهدا جديدا ، وإنها ايضا ـــ ولو أن هذا لم يصبح ذا اهمية كبيرة ـــ تتملق البطل القاتل .

— ٤ —

كان الطريق إلى القرية خاليا لا يسير فيه أحد ، فقد كانت الساعة الثالثة من عصر يوم حار شديد الحرارة ، ولم يكن هذا موعد عودة الفلاحين من الحقل ولا ذهابهم إليه . وكأن الشمس قد وعدت الطريق فى يومه هذا أن تريحه من دائسيه ساعات طويلة من النهار ، فهى ترسل أشعتها القاسية فتسفى بوعدها للطريق . إلا أن الطريق لم ينعم طويلا بهذه الدعة التى هيأتها له الشمس ، إذ ما لبث أن بدا فى أوله شاب طويل القامة يسير فى همة.توشك أن تصبح لهفة ، ولا يلبث هذا الفتى أن يقترب رويدا فإذا هو متناسق القسمات ، قوى الملامح أبيض الوجه ، دقيق الفم ، وأمض العينين ، إن رأيته وهو يستقبل الأفق ورأيت هذا الطيف من الابتسامة الذى يترقرق على شفتيه خيل إليك أنه فتى فى طريقه إلى هواه . فإن أدركت ذلك فلا تظلم ذكاءك فإنك محق ، إنه فتى فى طريقه إلى هواه .

ليس هذا الفتى غريبا عليك فقد اطلعتك عليه حيرة العمدة حين كان ينتظر المأمور الجديد ، وحين كان يفكر فى تلك البرقية التى أرسل بها إلى المأمور ليعتذر إليه لمرضه من عدم حضور

جمعية العمد . اذكرت الآن الفستى ؟ ما إخالك فعلت . إنه فخرى ابن الشيخ حسن .. فمن فخرى ؟ ومن الشيخ حسن ؟

الشيخ حسن رجل من وجوه القرية قريب إلى العمدة كل القرب ، فقد جمعتهما ملاعب الطفولة وفلقة الشيخ فى الكتاب ، ثم صحن الأزهر فى القاهرة ، ثم عودتهما دون أن ينالا شهادة . ثم جمعتهما من بعد الحياة فى القرية فكانا يواجهان الشدائد معا حتى تنحسر ، فإن هى تركت عليهما بعض آثار امتدت يد كل منهما تمسح عن أخيه اثر الشدة حتى تزول . وكانت هذه اليد تمتد بطبيعة لا أثر فيها لكلفة فكأنما هى تذود عن صاحبها ــ لا عن صديق صاحبها ــ شرا وقع أو يوشك أن يقع . وكلما مر بهما الزمان توثق ما بينهما من ود ، وكم حاول ذلك الزمان بالاشرار من أبنائه أن يفسد ما بين الصديقين ولكنها صداقة ثابتة على الزمان واشراره ، وصمدت لا تلين .

وهكذا عرف الناس الشيخ حسن على انه الصديق الاول للعمدة ، فإن اراد واحد من أهل القرية أن ينال العمدة بشر احتشم أن يفعل على مسمع من الشيخ حسن ، فقد تعودوا منه ــ إذا تعلوا ــ شدة فى الرد وعنفا فى الإجابة .

وكذلك كان الأمر مع العمدة إن حاول محاول أن ينال من الشيخ حسن على مسمع منه . وقد يلين العمدة إن انتقده احد ، وقد يلين الشيخ حسن إن لامه لائم ، ولكن واحدا منهما لا يلين ولا يسكت إن ذكر الآخر امامه بنقد او لوم .

ولم يكن الشيخ حسن فى مثل يسر العمدة ، ولكنه كان مستور الحال له فى ارضه ما يسد حاجته . وقد كان الشيخ

حسن ذكيا يعرف أن ما له إذا قسم بين ولديه فهما إلى الفقر ، فرأى ان يجعل الأرض من نصيب الاكبر والعلم من نصيب الأصغر ، وبرر هذا التقسيم لنفسه بانه سينفق على الأصغر مالا جسيما مما تنتجه الأرض ، وهو فى إنفاقه هذا إنما يعدو على حق الاكبر فى النفقة ، فهو لذلك سيعوضه عما فاته بأن يجعل راس المال كله حقا مباحا له بمجرد أن يتم الأصغر تعليمه .

وقد كان صلاح هو الاكبر وفخرى هو الأصغر ، وكان فخرى هو صاحب العلم فى تقسيم ابيه . وهكذا وجد فخرى نفسه يقاد إلى المدرسة منذ لا يذكر متى ، ومنذ ذلك الحين الذى لا يذكره كان يذهب فخرى إلى دوار العمدة مع ابيه حينا او مع صحابته او منفردا . وكان يلقى هناك جمعا من الأطفال ، وقد اتخذوا من باحة الدوار ملعبا يسع كل ما يعن لأذهانهم الطفلة من العاب ، فمن كرة تضرب باليد ، إلى كرة تلقف ، إلى كرة تتناشها العصى المعقوفة بالوان من الزجر والضرب والإلقاء ، إلى جرى لا يعرف هدفا ، إلى جرى هارب من الإمساك ، إلى وضع غمامة على عينين ، إلى غير ذلك من مراح الطفولة والصبا .

ومنذ ذلك الحين الذى لا يذكره عرف فخرى درية ، ومنذ ذلك الحين احب فخرى درية ، اكان حبا ذلك .. ؟ إنه اليوم يعلم انه الحب ، ولكن اكان إذ ذاك حبا .. ؟ لم يعد يدرى ! لقد شب هو عن مدرسة القرية وعن باحة الدوار ، فوجد نفسه يحب درية .. حبا لم يفجاه وإنما وجده معه كما وجد معه عينيه وقلبه ، لا يعرف كيف بدا ولا يذكر متى .

ولكنه يعرف أن هذا الحب عوده أن يكون السابق دائما ،

فلم يكن يقبل أن تسمع درية عنه أنه تخاذل فى ميدان أو سبق فى مضمار ، فهو فى دراسته أول فصله ، وهو فى احتفالات القرية خير خطبائها ، وهو فى أبناء البلدة خيرهم . إن تحدث يجهد كل الجهد أن يقتسر المديح اقتسارا ، ويجهد كل الجهد أن يأخذ هذا المديح طريقه إلى أذن درية .

لم يعرف عنه أحد أنه انحدر إلى شر ، فإن أحدق به الشباب ينزلق به عرف كيف يمنع كل شائبة أن تلحق باسمه إذا ما ذكر اسمه عند درية .

وقد كانت درية تلقاه وقد أحاطت باسمه عندها كل هذه الهالة التى أقامها حول نفسه ، فتذكى حبها له بإكبار . وكان الشباب قد حال بين اجتماعهما منفردين بعلم من الآباء والأمهات . ولكن هذا الشباب نفسه مهد لهم اللقاء المختلس فى ستار من الليل ووقاء من العفة .

كانا يلتقيان فى باحة الدوار نفسها هناك تحت شجرة أظلتهما صغيرين وأظلت حبهما شابين ، والليل هاجع والعيون مغمضة إلا أعينهما ، والرقيب بمنأى إلا رقيبا أقامه فى نفسيهما أمل فى الغد والزواج ، وماض من الطفولة واللعب يحمل لهما فى طواياه أنقى الذكريات .

كان حديثه يدور عن المدرسة ثم الكلية ، وكان حديثها يدور عن أتراب الباحة من اللاعبين وما صارت إليه أمورهم . فكانت تجد فى حديثه الدنيا التى لم تعرف عنها إلا ما تقرأه فيخيل إليها أن صاحبها أحاط بكل شىء علما ، وكان حديثها عنده أعمق من علم كل عالم عرفه أو لم يعرفه .

ثم ينتهى اللقاء بوعد على اللقاء . حتى إذا انتهت الإجازة انتهى اللقاء بوداع تشتبك فيه الأيدى وتتصافح القلوب وتتعانق الأرواح ، يفصل بين الجسدين أمل فى الغد والزواج ، وماض من الطفولة والملعب يحمل لهما فى طواياه أنقى الذكريات .

هكذا كان فخرى يقضى أمسيات إجازاته ، وهكذا استطاع فخرى أن يطارد الزمن فى تعليمه ، فهو فى الطليعة الأولى من الناجحين كل عام . حتى بلغ السنة الثالثة فى كلية الحقوق وأدى الامتحان وعاد إلى القرية .

وعاد إلى الأمسيات الحالية فى باحة العمدة ، إلا أن الحديث من درية لم يعد طلقا كما كان وإنما تمسكه عن الجريان غصة فيه مترددة بين الظهور والاستخفاء ، يحيط بهـا حياء وخوف وإشفاق وهوى . ولم يكن عقله ليدرك هذه المعانى ، ولم يكن عقله بمطيق أن يصل إلى منابت تلك الغصة ، ولكن قلبه أحسها حين كان كلامها يصل إلى قلبه . .كان يجد بالحديث حصى وهو يعرفه صافيا ، ويجد به رواسب ألم وهو يعرفه نقيا طلقا مصطفق المجرى حلو الأرائين .

ـ درية ؟

ـ هه .

ـ انت تخفين شيئا ؟

ـ نعم .

ـ ولم تخفينه ؟

ـ لابد أن يختفى .

ـ حتى عنى ؟

ـــ عنك بالذات .

ـــ لعلنى أدركه .

ـــ ما أظن .

ـــ بل إنى أدركه .

ـــ لا عليك .. فلنعد إلى حديثنا .

ـــ ويلٌ للزمان .

ـــ وما فعل الزمان ؟

ـــ سرقنا .. سرق طفولتك وطفولتى ، فما عدنا نحس الأيام وهى تمضى .. غفلنا عن الأيامِ ولم تغفل .. أشرفت بك على النضوج وأنا بعد لم أنل تلكَ الورقة التى تؤكد أننى استويت ، وأصبحت لكَ أهلا .

ـــ لا أفهم ما تقصد إليه .

ـــ ومتى جاء الخاطب ؟

ـــ بل لم يخطبنى أحد .

ـــ فهناك من يسعى إلى خطبتك .

ـــ ولا ذاك .

ـــ فما الذى تخافين ؟

ـــ خوف .

ـــ مم ؟

ـــ من الغد .

ـــ وما فى الغد ؟

ـــ ما أخشاه .

ـــ وما يدعوك للخشية ؟

ـــ حديث أبى .

ـــ أبوك ! ماذا يقول ؟

ـــ يقول .. ؟

ـــ نعم .

ـــ يقول .. يقول .. اريد يا درية ان ازوجك من ابن الحلال ، واريده غنيا وافر الغنى ، واريد لك بيتا بل قصرا فى القاهرة .. ما رايك يا درية ؟

ـــ وبماذا تجيبين ؟

ـــ بالصمت .

ـــ بالصمت ؟

ـــ وماذا يمكن أن اقول ؟ !

ـــ لا .. أما انت فلا تقولى شيئا .. إنه انا من سيقول ..

ـــ وماذا تقول ؟

ـــ غدا تعرفين .

ويقوم فخرى من مجلسه والدموع تتـواثب فى عينيـه ، وتنثنى درية إلى حجرتها حائرة لا تدرى أصابت أم اخطأت بحديثها .

ويصل فخرى إلى منزله فيجد أباه ما زال صاحيا ويجد أمه واخاه نائمين ، فينتهز الفرصة السانحة ويجلس إلى أبيـه لا ينطق ، حتى يسأله الأب :

ـــ مالك يا فخرى ؟

ـــ لى امل عندك يا ابى .

ـــ فقله .

ـــ أريد ان اخطب .

ـــ وماله .. ما احب إلىّ ان اراك متزوجا سعيدا فى بيتك . ولكن الا تنتظر حتى تأخذ الشهادة الكبيرة ؟

ـــ ولكن من اريدها لن ينتظر عليهـــا الخطـــاب حتى أنال الشهادة ، وانا أريد ان اخطب فقط ثم اتزوج عندما أتم تعلمى .

ـــ والله يا ابنى لا ارى مانعا .. ومن هذه الفتاة التى لا ينتظر خطابها ؟

ـــ درية بنت العمدة .

ـــ نعم من اخترت يا بنى .. إنها فعلا لن تنتظر .. الحبيبة بنت الحبيب .. نعم الخيرة يا بنى .

ـــ فمتى تخطبها يا أبى ؟

ـــ كما تشاء .

ـــ غدا ؟

ـــ غدا .

ـــ ولكن .. ؟

ـــ ماذا ؟

ـــ الا يحسن أن تنتظر حتى تظهر النتيجة ، وانتقل إلى السنة الرابعة ؟

ـــ وهل فى نجاحك شك يا فخرى .. ؟ إنك من الأوائل دائما .

ـــ ولكن يا أبى عندما أكون فى السنة الرابعة أكون قريبا

من التخرج ، وتكون مناسبة معقولة للخطبة ، وانت تخبر عم الشيخ زيدان بنجاحى .

ـــ والله يا ابنى كلام معقول .

ـــ غدا سأسافر إن شاء الله ولن اعود حتى اعرف النتيجة ، واجيئك بخبر نجاحى إن شاء الله .

ـــ وهو كذلك يا ابنى .. على بركة الله .

ويقوم فخرى إلى فراشه فيراح إليه يكاد لا يستقر به من فرح غامر راح يتواثب فى حنايا قلبه ، يحاول ان ينام فتشذود عنه النوم تلك السعادة العنيفة التى انتهت بها ليلته ، فيدافع القلق عن عينيه بما جرى له فى ليلته تلك فلا يزيده ذلك إلا قلقا ، فيقبل على هذا القلق يكاد يعانقه فرحا به هو أيضا ، فما عاد يضيق بشىء حتى بتلك العيون المفتحة وخيوط الفجر توشك أن تنسج بردها من الصباح .

ويسافر فخرى فى أول وسيلة تصل به إلى القاهرة ، وتمضى أيام ثم ما يلبث أن يعود إلى هذا الطريق المؤدى إلى قريته فيدوسه بأقدامه ، ويكسر بذلك وعد الشمس الذى بذلته للطريق الا يدوسه أحد فى هذا الحر القائظ . ولكن ما لفخرى ولهذا الوعد الا إنه عائد إلى قريته يحمل فى جنبيه أمل حياته .. ما مضى منها وما هو فى مطوى الغيب خبىء .

لقد نجح فخرى فى الامتحان وهو اليوم عائد لينقل بشراه إلى .. إلى من ؟

أيميل إلى درية فيحتال للقائها بكل سبيل ثم يلقى بين يديها نبأ انتصاره ؟ أم يقصد من فوره إلى أبيه فيستنهضه إلى العمدة

ليخطب درية ؟ . تكاد الحيرة تقلق الفرح الغامر الذى يتوائب فى كيانه جميعا ، ولكن قليلا ما تلبث هذه الحيرة .. فقد انتصرت درية .. وهل يمكن إلا ان تنتصر .

دوار العمدة صامت لا صوت به ولا حركة حوله ، فالجميع لا جئون إلى سقف يدرأ القيظ عنهم . انفتل فخـــرى إلى باحة الدوار وأجال نظره فى مراح الصبا وملتقى الهوى ، فما وجد غير تلك الشجرة التى أظلت الطفولة والشـــباب ، والتى يطل عليها الشباك ذو المصراعين الخشبيين اللذين يقفلان على أعواد من الحديد الأسود .

يلجأ فخرى إلى ملاذه القديم من ظل الشجرة ، وينقر الشباك نقرات لا تكاد تنتظم ولا تكاد تبين ، .. وتطل درية :

ـــ من ؟ فخرى .. ؟ هل جئت ؟

ـــ نعم .

ـــ الدنيا نهار ، وللناس عيون !

ـــ غبت عنك أياما كثيرة ، وعندى أخبـــار لا تعبـــأ بالدنيا ولا بالنهار ولا بالناس ولا بالعيون .

ـــ خير ؟

ـــ نجحت فى الامتحان وأصبحت فى السنة الرابعة .

ـــ والنبى ؟ . مبروك .. مبروك يا فخرى .

ـــ مبروك لا تكفى .

ـــ وماذا تريد ؟

ـــ الا تعرفين معنى نجاحى هذا .. ؟

ـــ معناه انك أصبحت فى السنة الرابعة .

ـــ ومعناه ان ابى سيجىء إلى أبيك .

ـــ إلى أبى

ـــ نعم .

ـــ ولماذا ؟

ـــ لماذا ؟ الا تعرفين ؟

ـــ اظننى اعرف .

ـــ فمالك لا تطيرين من الفرح ؟ ! مالك لا تكسرين هـــذا الحديد الذى يحول بيننا .. ؟ اراك واقفة لا تزالين .. درية .. مالكَ مطرقة ؟ !

ـــ اخاف يا فخرى ؟ !

ـــ مم ؟

ـــ إن ابى يحلم أحلاما كبيرة لا اريدها ان تتحقق ، ولكن اخشى ان يرفض اليوم ما نهفو إليه وينقطع ما بيننا ، وأفقد حتى الأمل الذى احيا به .

ـــ ابوك يرفض طلب ابى ! .. الا تعـــرفين ما بينهمـــا من صداقة ؟

ـــ اعرف .. ولكن اخشى .

ـــ فدعى الخشية الآن .. وافرحى معى .

ـــ ارجو ان افرح .

ـــ فافرحى .

ـــ الله لنا يا فخرى !

ـــ يا شيخة .. لقد افسدت فرحتى بتفكيرك .

ـــ انت محق يا فخرى ، فالتفكير ـــ على اى لون له ـــ يفسد

الأفراح .. ولكن لا عليك .. اذهب أنت الآن إلى أبيك ولنـــدع الله أن يحقق آمالنا .

— إن الله أرحم من أن يفرق بيننا .

— قادر على كل شيء يا فخرى .

— طيب .. اشوفك فى المساء إن شاء الله .

— إن شاء الله .

ويمضى فخرى إلى أبيه وقد تطامنت فرحته بعض الشيء ، يفكر فى درية وفى صداقة ابيه لأبيها ، وفى نجاحه ، وفى مديح الناس له ، وفى المستقبل الذى ينتظره ، وفى حبه لدرية وحبها له . فإذا أراد عقله أن يجمح به إلى قلة ماله رد عقله فى عنف عن هذا التفكير السخيف ، وما المال أمام الصـــداقة والمـــديح والمستقبل والحب .. ؟

***

— ٥ —

قام كمال من جلسته فى بيت النمسرود وقد أحس أن الله أجاب سؤله وحقق رجاءه ومنّ عليسه أخيرا بما كان منتسهى آماله . فقد عرف فى هذه الليلة أين يحصل على سلاح ، وهو يعرف منذ أمد بعيد كيف يستعمل هذا السلاح ويعرف كل خطوة سيخطوها منذ أن يستعمله . وأراد كمال أن يحتفل بمستقبله الذى رسمه فى ظل السلاح وإن له لمراسم خاصة لاحتفالاته ، تعود أن يقيم هذه المراسم كلما حصل على مبلغ كبير سكبه عليه فرح ثرى ، أو غفلة من صاحب مال مكنته أن يسرق هذا المال .

وكان احتفاله هذا مقصورا على نفسه ، يشاركه فيه جزء آخر من الهمل يسعى فى القرية ضالا بلا هدى ولا مأوى إلا الاستجداء والإلحاف فى الاستجداء .

كانت « وطنية » وذلك هو اسمها هى صديقة كمال .. نشأت من المجهول وتسير إلى المجهول لا يعنيها من طريقها إلا أن تسير ، ولا يعنى أحدا من أمرها أن تسير أو لا تسير . فهى بنت المجهول أبوها الليل الدامس وأمها شجرة على الطريق . عثرت بها قابلة القرية فى ليلة حالكة السواد ، ولولا أن وطنية

كانت تصرخ ما أحست بها القـــابلة فى ليلتهـــا تلك ، ولولا أن القابلة كانت عائدة من ميلاد شرعى متعسر ما عاشت وطنية .

وكانت البلاد فى ذلك الحين واقعة تحت موجسة من مـــوجات الوطنية التى يثـــيرها الزعماء فرأت القابلة أن تسمى اللقيطة وطنية . واصبحت وطنية فى القرية أكثر شهرة من الوطنية ذاتها ، فإن القرية لا تجد فى كل يوم حادثا مثل هذا يوسع لها مجالات الحديث والتخمين والاستنكار ، والتعوذ بالله من الشيطان ، واستغفار الله للجانى والجانية ، وطلب الستر على العبـــاد الصالحين وغير الصالحين . ولكن إجماع القرية كان منعقدا على أن وطنية من قرية أخرى ، إذا لا يعقل أن تحمل فتاة من القرية دون أن ترى القرية حملها ، وفتيـــات القـــرية غاديات رائحات على الملأ لا يتخفين .

وهكذا ظهرت وطنية فى القرية من ثنايا قصة خزى وعار ، واكد الناس أنها غريبة من القرية فأصبحت تجمع إلى ذل العار انكسار الغريب . وفى وسط هذه الأمواج المتزاحمة من الهوان شبت وطنية تضارع بقبح وجهها قبح مكانتها فى القرية . وكأنما رفضت الطبيعة أن تهب لها شيئا تتعزى به فهى عجفاء بلا قوام على الإطلاق ، ينتهى خط جسمها من أعلى بكمية من الشـــعر الأسود القوى يتأبى على كل منـــديل يحاول أن يلم شـــعثه ، تعقبه إلى أسفل جبهة ضيقة ، فعينان صـــغيرتان تحيط بهما مرتفعات ضـــخمة ، لابد لك أن تتعـــم فيها النظر حتى تتبين خلالها أنف وطنيـــة الأفطس ، وما إن تتبينـــه حتى تقف حائرا كل الحيرة ، باحثا عن المكان الذى يمكن أن يدخل منه الهواء

او يخرج إلى ومن جسم وطنية . ثم ما تلبث ان تفيق من هـذه الحيرة حين يروعك فمها ، فإنك حينئذ ستدرك ان هذا الفـم لا يمكن أن يمنع الهواء داخـلا أو خارجا ، فهـو من السـعة بحيث يحتاج إلى قوة عنيفة لتمسك به مقفلا يذود الهواء أو اى شيء يدخـل او يخـرج منـه . فإن اسـتطعت ان تحـول عينيك عن الفم وتنحـدر بهما إلى اسـفل الوجه ، وجدت ذقنا يحاول جاهدا ان يخفى ما اتسع من الفم ، فهـو صـغير جميل ، يفضى إلى رقبة معتدلة وإن كنت ـ من شدة هزال وطنية ـ تكاد تحسبها امتدادا لجسمها ، أو تكاد تحسب جسمها امتدادا لتلك الرقبة .

تلك كانت وطنية التى شبت فى بيت قابلة القرية . وقد كانت القابلة ترى فى عطفها على وطنية أمرا يزيد من عطف القـرية عليها ، ويجعل لها العذر إذا هى طلبت الجدوى ان تطالب بحق اللقيطة التى تقوم على تربيتها ، وكانت لا تعدم بين الاثرياء من يمد لها يدا سخية . وهكذا اصبحت وطنية ـ وهى النقمة على نفسها ـ نعمة على القابلة التى تقوم بشأنها .

ولكن الطبيعة ابت ان تبقى لوطنية هذا الملجأ الذى كانت تتوارى فيه من خزيها وغربتها .. فقد ماتت القابلة ولم تترك وراءها شيئا .. فقد شاءت ـ غفر الله لها ـ ان تحج .. فاخذت كل مال مدخر لديها ، وباعت كل ما عندها من حلى ، وسافرت للحج .. واعجبها الحجاز فماتت هناك ، وخلفت بالقـرية بيتا متداعيا ليس فيه إلا وطنية .

ولم تكن وطنية قد اخذت عن القابلة صناعتها ، فإنها حسين

بلغت السن التى يمكنها فيها أن تتعلم شيئا كانت القابلة قد بلغت السن التى لا يمكنها فيها أن تعلم شيئا . فقد كانت — رحمها الله — فى سنيها الأخيرة راعشة اليدين بطيئة الحركة ، حتى لقد انفضت عنها المشرفات على الولادة ولم تبق لها إلا العوائد التى كانت تستجديها من الأغنياء .

وهكذا أصبحت وطنية وحيدة لا معين لها ولا عائل ، إلا يد تمتد وفم يستجدى .

وعلى هذا الطريق من الاستجداء اتصلت أسباب وطنية بكمال .

فكمال لا يجد حانيا عليه إلا وطنية ، ووطنية لم تجد رجلا إلا كمالا . فاتصلت الحاجات وتعارف الشريدان ، وأصبحت مراسم الاحتفال عند كمال أن يقضى لدى وطنية ليلة يصيب فيها طعاما يشتريه هو وتطبخه هى . ثم يبيت عندها ليلة ويخرج قبل الفجر ، فلا يحس أحد الطبخ أو المبيت .

وهكذا خرج كمال من بيت النمرود وقد حزم أمره على أن يحتفل الليلة بمستقبله الباسم .

كان الوقت صيفا والفلاحون فى الصيف يسمرون إلى عميق الليل ، فخرج كمال قاصدا إلى منزل عبد العزيز الجزار فوجده يدخل منزله بعد أن قضى سهرته مع إخوانه ، فاشترى منه رطلين من لحم الذبيحة التى ذبحها فى نهاره هذا ، وكان عبد العزيز قد تعود أن يبيعه رطلا بين حين وآخر فلم يدهش كثيرا لزيادة الكمية ، ولم يدهش مطلقا انه جاء للشراء فى هذا الوقت المتأخر من الليل ، فقد تعود أن يبيعه — كلما باعه —

فى مثل هذا الموعد . ووضع كمال اللحم فى جيبه وذهب إلى جنينة العمدة ، فوجد عبد الله حارس الجنينة مشعلا نارا يصنع عليها قهوة ، فاشترى منه بطاطس وطماطم وكل ما لا بد من شرائه للاحتفال ، وقصد بحمله تحت ستار الليل إلى بيت القابلة سابقا وبيت وطنية حاليا ، وطرق الباب ..

ـــ من ؟

ـــ افتحى يا بنت الكلب .

وفتحت وطنية وطنية الباب هنيهة تسرب فيها كمال إلى داخل المنزل ، ثم اقفلت الباب وراحت تنظر إلى ما يحمله كمال .

ـــ خير .. اين كنت طول هذه المدة ؟

ـــ وما شانك انت ؟ . انظرى .. احضرت لك اليوم رطلين لحمة من أحسن صنف .

ـــ رطلين يا ابن الكلب .. ؟ لابد انك قتلت قتيلا !

ـــ لا . لم اقتل بعد .

ـــ وهل ستقتل ؟

ـــ والله .. الله اعلم .

ـــ ماذا تعنى ؟

ـــ مالك انت بما اعنى وما لا اعنى ؟ .. هيا اطبخى لنا هذا الطعام فإنى أريدها ليلة نذكرها طول العمر .

ـــ ولماذا نذكرها ؟

ـــ لأننا غدا سنصبح أغنياء .

ـــ اغنياء .. من ؟ انت ؟

ـــ نعم انا .

ـــ أنت يا ابن الضائعة ؟

ـــ اخرسى يا بنت .

ـــ أنت اغنياء .. ولماذا .. ؟ وهل عمى الغنى حتى يجيئك أنت .. ؟ الم يجد احدا إلا انت ؟

ـــ ومالى انا يا بنت ؟ .. والله إنى مجهول فى بلد الكلاب هذه .. ولكن لا بأس .. غدا تعرفنى البلدة وتعرف قيمتى .

ـــ وما قيمتك ؟ .. أنا والله اعرف قيمتك كل المعـــرفة .. ضائع ابن ضائع ، لا خير فيك ولا منك .

ـــ غدا حين ترين المال فى يدى تعرفين قيمتى .

ـــ والله يا ابن الملاعين لو جاء المال إلى يدك ما نظرت إلى ولا عرفتنى .

ـــ لماذا يا وطنية ؟

ـــ يا ابنى انا بنت حرام .. اتظن كلامك ينطلى على ؟؟ ؟ ! انا أعلم انى لست جميلة وانك لا تأتينى إلا لانك لا تجد غيرى .

ـــ لا والله يا وطنية .. الله اعلم .

ـــ فلماذا لا تتزوجنى ؟

ـــ ولم لا ؟ . تتزوج إن شاء الله .

ـــ يا أخى هيه .. النهاية .

وهكذا اتصل الحديث بين الشريدين على هذا النسق الأعلى من الحب .. ماذا ؟ أتظننى ساخراً .. لا وحقك ؟

فما كان الحب عندهما إلا هذا السباب الذى سمعت ، وإن كان كمال يجارى وطنية فى السباب على غير حب إلا أن سبابها

هى كان حبا دافقا عارما .. حب من لا تجد لها بين الناس إلا فتاها هذا ، فهو عندها الاب والاخ والام والصديقة والصديق .

انتهت وطنية من طبخ الطعام واكلا ، ثم انطفأ السراج على اثنين .. اما وطنية فمتوجسة شرا مما هددها به كمال من ذلك الغنى الطارىء عليه ، معتقدة فى عميق نفسها أن المال سيكون نهاية صلتها بكمال وفى هذه النهاية نهايتها هى . واما كمال فيحلم بذلك الغد القريب حين يمسك بالمقروطة ، ويسعى بها إلى المجد الذى أعد لنفسه مراتبه ومراقيه .

— ٦ —

صحا العمدة من غفوة القيلولة وصلى فرض العصر وخرج إلى شرفة الدار ينتظر رفاق سمره الذين تعودوا ان يقصدوا إليه من قبل المغرب ، ويقيموا لديه حتى موعد العشاء ثم ينصرفوا .

اقام العمدة وحيدا فى يومه هذا بضع لحظات ، ما لبث ان اقبل بعدها الحاج إبراهيم الحسينى شيخ البلدة ، والشيخ رضوان خطيب الجامع ، والحاج على صاحب الراديو الذى يجتمعون عليه كل مساء منذ أن يتركوا العمدة حتى تنتهى الإذاعة من برامجها .

وقال العمدة :

— مرحبا .. ولكن اين الشيخ عبد الودود ؟ .. اتراه ذهب اليوم فى طلاق ام زواج ؟

فأجاب الحاج على :

— بل ذهب إلى طلاق فى عزبة النمايلة .

وقال العمدة :

— عظيم .. إنه يفرح بالطلاق اكثر من فرحه بالزواج ، فهو يقول إنه حين يطلق المراة من زوجها يأخذ اجرا للطلاق ، ثم يزوج الرجل المطلق من امراة ويأخذ اجرا ، ويزوج المراة المطلقة

من رجل آخر ويأخذ اجرا ، فيكسب من جراء الطلاق الواحد ثلاثة اجور بينما لا يكسب من الزواج إلا اجرا واحدا .

فيضحك الضيوف الثلاثة من بعد نظر الشيخ عبد الودود ، ويبدأ الحاج إبراهيم حديثا آخر فيقول :

ـــ ما رأيك يا حضرة العمدة فى الولد احمد أبى قطران الذى يأبى إلا السوء دائما ؟ !

ـــ ما له يا حاج إبراهيم .. ماذا عمل ؟ !

ـــ عمله أسود !

فقال الحاج على :

ـــ يعنى ما دام يرفض أن يبيع لك الفدان يكون عمله أسود .

ـــ لا والله يا حجعلى ، إنما الولد لئيم وينتهز الفرص ، وطبعه شين والعياذ بالله .

فقال العمدة :

ـــ قل لى ماذا فعل ؟ .

فسارع الشيخ رضوان قائلا :

ـــ قل لحضرة العمدة يا حاج إبراهيم ، قل له حتى يعرف أن الولد الذى يحميه لا يستحق الحماية .

فقال الحاج على :

ـــ سبحان الله يا شيخ رضوان ، انقلب على الوليّد بهذه السرعة .. اكل هذا لأنه قال إن الحديث الذى قلته فى الخطبة غير صحيح .

فصاح الشيخ رضوان غاضبا :

ـــ هذا لا يليق يا حجعلى .. انا اغضب من جاهل كهذا .. ؟

ومن أين له أن يعرف صحيح الحديث من غير الصحيح .. لا يا حجعلى .. لا يا رجل قل وغير ..

فقال الحاج على :

ـــ لا والله لا اغير أبدا . فأحمد ابو خليل محق ، والحديث لم يقله النبى .

ويسأل العمدة :

ـــ اى حديث ؟

فقال الحاج على :

ـــ نعم إنك انت من يفتينا يا حضرة العمدة .. اتعقل يا حضرة العمدة ان النبى .. النبى محمد الذى هدانا إلى الصراط المستقيم ، والذى جعل النظافة من الإيمان ، هذا النبى يقول : إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم فغطســـوه ، ففى أحد جناحيه داء وفى الآخر دواء .

وارتبك العمدة حينئذ وحاول أن يجيب ، ولكن الشيخ رضوان سارع قائلا :

ـــ إن هذا الحديث وارد فى صحيح البخارى .

فقال العمدة :

ـــ البخارى لا يكذب يا حجعلى .

فقال الحاج على :

ـــ لعل البخارى لا يكذب ، ولكن قد يكذب غيره .

فصاح الشيخ رضوان :

ـــ اتقصد اننى الكذاب يا حجعلى .. منك لله يا شيخ .

فقال العمدة محاولا تهدئة الشيخ رضوان :

ـــ لا تكن عجولا يا شيخ رضوان ، فالحـــج على لم يقصد إلى هذا .

وقال الحاج على مبتسما وقد احس انه افرط على الشـــيخ رضوان :

ـــ لا والله يا شيخ رضوان ، انا لا اقصد انك كذاب ـــ لا قدر الله ـــ ولعلك قرات الحديث فى كتاب غير البخارى ، نقل الحديث ونسبه كذبا إلى البخارى .

وهنا صاح الحاج إبراهيم :

ـــ ما هذا يا رجل ؟ اتكلم عن احمد الكلب فتقطعون كلامى وتتشاجرون ؟

فقال الحاج على فى مزاح قريب إلى الجد :

ـــ اما آن لك أن تنتهى عن احمد يا حاج إبراهيم .. ؟ الجميع يعرف انه مختلف معك على الفدان الواقع فى وسط ارضك .

فقال الحاج إبراهيم محتدا :

ـــ اسمع يا حاج على .. امراتى طالق ثلاثا يا شيخ ، إن انا اشتريت هذا الفدان فى الحال او الاستقبال ، او إن انا جعلت احدا من ابنائى يشتريه ودفعت ثمنه سرا .. ما رايك ؟ .

فبهت الحاج على هنيهة ثم قال :

ـــ لماذا يا حاج إبراهيم ، لقد كنت امزح معك يا رجل .

فقال الحاج إبراهيم :

ـــ لا يا سيدى .. انا رجل عشت عمرى شريفا .. عينت شيخا للبلد وكلكم تعرفون ان يدى لم يصلها مليم عن طريق غير شريف .

واحمر وجه العمدة ، وواصل الحاج إبراهيم حديثه :

ـــ نعم إنى أريد شراء هذا الفدان .. واستطيع ان اكتب البلاغ تلو البلاغ لاشكو أحمد أبو خليل واقلق منامه واجعله لا يبيت ليلة مطمئنا .. واستطيع ان احبس عنه المياه فلا يراها إلا فى دموع عينيه .. استطيع يا حجعلى ولكنى لم افعل لانى شريف .. ولكننى ايضا لا استطيع ان اسكت عن الحرام واغفل على الزور واستر على الإجرام ، حتى امنع الناس ان يتهمونى بالتحيز ضد احمد . ارض احمد حرام علىّ وعلى اولادى فى حياتى .. حرمتها على نفسى لاقول الحق وساقوله ...

فقال الحاج على فى خجل :

ـــ لماذا كل هذا يا حاج إبراهيم .. ؟ لماذا كل هذا ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله .

وحينئذ قال العمدة :

ـــ يا سلام يا حاج إبراهيم ، لو لم تكن سريع الغضب إلى هذا الحد لكملت محاسنك .. الا إن الحلو لا يكمل .. قل لنا ماذا فعل احمد ابو خليل ؟

فقال الحاج إبراهيم :

ـــ يريد أن يتزوج سعدية ام الخير .

فقال العمدة :

ـــ ولكن سعدية متزوجة !

فسارع الشيخ رضوان قائلا :

ـــ وهذه هى البلوى !

فعاد العمدة يقول :

ـــ إنها متزوجة من صالح أبى سعد الله ، وكانت غاضبة ورجعتها إليه .

فقال الحاج على فى ابتسامة خبيثة :

ـــ نعم .. نعرف يا حضرة العمدة .. ربنا يعمر بيتك .

فقال الحاج إبراهيم :

ـــ ولكن كيف تستقر المرأة فى بيت زوجها إذا كان وراءها إبليس يوسوس لها كل ساعة ؟ .. صالح رجل فقير لا يملك إلا الخرقة التى يلبسها ويكد طول يومه ليعيش فى ستر . والولد أحمد يملك فدانين وعشرين قيراطا ، ويخل يومه رائحا غاديا أمام منزل صالح مرتديا الجلباب الحريرى ، ويا أرض انهدى ما عليك قدى . البنت جاهلة وعقلها صغير ، فهى اليوم فى بيت أبيها ، وقد صممت على الطلاق من صالح .. قصدنى صالح وشكا لى الحال وقال : إنه لا يملك ما يصلحها به .

فتساءل العمدة فى عجب :

ـــ لا يملك ماذا ؟

فقال الحاج إبراهيم فى شىء من التحدى :

ـــ ما يصلحها به يا حضرة العمدة ، فما العمل ؟ !

فقال العمدة :

ـــ سبحان الله يا حاج إبراهيم .. وماذا تريدنا أن نفعل ؟ امرأة تكره زوجها .. ! فكيف يصلح العيش بينهما .. ؟ هل المعاشرة تدوم بالغصب ؟

فقال الحاج إبراهيم :

ـــ سبحان الله يا حضرة العمدة .. وماذا يفعل صالح .. ؟

وما ذنبه .. إذا كان فقيرا .. ؟ وهل تزوجته على أنه صاحب مائة فدان ، ثم اتضح لها انه لا يملك شيئا ؟.. إنه صالح .. صالح نفسه الذى تزوجته لم يتغير .

ثم دس فى لهجته رنة عميقة وهو يقول :

ـــ هو نفسه صالح الذى قبلت أن تصلحه انت عليها يا حضرة العمدة .. فهل يطلقها الآن لأنه لا يملك ما يصلحها به ؟

أحس العمدة تلك الرنة التى دسها الحاج إبراهيم ، وعرف أنه يقصد إلى تلك الفراخ التى كان مصيرها سيارة المأمور ، ولكن العمدة يغضى عن كل هذا الغمز ويقول :

ـــ طيب يا حاج إبراهيم ، سنرسل الآن إلى احمد ابى خليل ونرى إن كان يقصد إلى إثارة سعدية على زوجها ، أو أنها مجرد صدفة .

فقال الحاج إبراهيم :

ـــ اى صدفة يا حضرة العمدة ؟ .. إنه يرسل إليها الرسل فى كل يوم .

وقال العمدة :

ـــ سنرى يا حاج إبراهيم ، سنرى ..

ثم صاح مناديا :

ـــ يا عبد الجليل .. يا عبد الجليل ..

وقبل أن يأتى عبد الجليل يصعد إلى الشرفة الشيخ حسن وابنه فخرى فيرحب بهما العمدة ، ثم يأتى عبد الجليل فيطلب إليه العمدة أن يرسل خفيرا إلى أحمد ابى خليل ليحضره . وينصرف عبد الجليل ويعود العمدة إلى الشيخ حسن :

ـــ مرحبا أبا فخرى .. تأخرت الليلة عن موعدك .. لعل المانع خير إن شاء الله ؟!

فيجيب الشيخ حسن فى فرحة غامرة :

ـــ خير وأى خير .. فخرى عاد بالسلامة اليوم ، وقد نجح فى الامتحان ونقل إلى السنة الرابعة .

ويصيح العمدة :

ـــ الحمد لله ، مبروك يا فخرى .. مبروك يا بنى .. يا ولد هات الشربات حلاوة نجاح فخرى .

ويقول فخرى فى تلعثم :

ـــ شكرا يا عمى .. بارك الله فيك يا عمى .

ويقول الشيخ حسن :

ـــ أطال الله بقاءك يا شيخ زيدان ، وأدام المودة بيننا ، وبارك لك فى ذرية وأبقاها .

وراح الجالسون جميعا يباركون لفخرى نجاحه . وبدأ الحاج على يسأله فى القانون ويناقشه فيه ، فانتهز الشيخ حسن الفرصة وقال للعمدة :

ـــ والله يا شيخ زيدان أريدك فى كلمتين على انفراد .

وقال العمدة :

ـــ تحت أمرك يا شيخ حسن ، بإذنكم يا جماعة .

وأجابت أصوات متباينة : « تفضل » . ودخل الشيخ حسن وراءه العمدة إلى الدوار ، حتى إذا استقر بهما المجلس قال الشيخ حسن :

ـــ الصداقة التى بيننا غنية عن الذكر ..

فقال العمدة :

ـــ معلوم .

فقال الشيخ حسن :

ـــ وقد عشت طول عمرى آمل أن اجعل من هذه الصداقة قرابة بيننا .

وفهم العمدة ما يهدف إليه الشيخ حسن فسارع يقول :

ـــ والله يا شيخ حسن إن الصداقة التى بيننا أقوى من كل قرابة .

وكاد الشيخ حسن يفهم أن العمدة غير متحمس لما سيعرضه عليه ، ولكنه قال :

ـــ ولكنى اتمنى أن تقوى هذه الصداقة بيننا برباط شرعى .. اسمع يا شيخ زيدان .. انا اطلب القربى منك .. أريد درية لابنى فخرى ، فما رأيك ؟

فقال العمدة متلجلجا :

ـــ ولكن فخرى .. فخرى .. أليس صغيرا .. وابنتى درية أيضا صغيرة !!

فقال الشيخ :

ـــ والله لو كنت قلت عن فخرى إنه صغير وسكت لناقشتك ، أما قولك عن درية إنها صغيرة ، فمعنى هذا انك ترفض يدى التى امدها إليك يا حضرة العمدة .

فقال العمدة :

ـــ اسمع يا شيخ حسن .. ما مصير صداقتنا إذا انا رفضت فخرى ؟ . اتراك تزعل ؟

فقال الشيخ حسن :

ـــ أكون كاذبا لو قلت إننى لن أزعل .. سبحان الله ياحضرة العمدة .. بالطبع أزعل يا أخى ..

فقال العمدة :

ـــ صبرك يا شيخ حسن ، المسألة مستقبل بنتى ، وأنت تعلم ما اصنعه لأجعل لها ثروة تغرى بها ابن الحلال .. أريد لها شابا من الأغنياء يسعدها فى حياتها . فخرى شاب عظيم ، ولكنك يا شيخ حسن لا تستطيع أن تمده هو ودرية بما يهيىء لهما ما أرجوه لدرية .. إنك تفكر فى ابنك .. أيغضبك أن أفكر فى ابنتى ؟

فقال الشيخ حسن :

ـــ أنت حر فى أن تفكر فى ابنتك كما تشاء ، ولكنى أنا أيضا حر فى أن أغضب يا شيخ زيدان .. لقد علقت بالصداقة أملا لا تحتمله الصداقة .. فلا بأس .. ولو أننى بكلمة لا بأس هذه لقتل ثلاثين عاما من سنى حياتى .. ولا بأس أيضا فإننى لا أملك غيرها كلمة ... سلام عليكم يا حضرة العمدة ...

وخرج الشيخ من الغرفة إلى الشرفة فى خطوات سريعة غاضبة ، وعبر الجالسين وهو يقول :

ـــ سلام عليكم يا رجال .. هلم يا فخرى .

وقام فخرى لا تكاد رجلاه تحملانه .. فقد أدرك المعنى الذى تحمله خطوات أبيه السريعة وانصرافه المبكر ، ولكنه لا يريد أن يصدق هذا الإدراك الذى لا يحتاج إلى كثير ذكاء .

وقال الحاج على :

ـــ الله .. إلى أين يا شيخ حسن ؟ .. الا تشرب شربات ابنـك ؟ .

فيقول الشيخ حسن وقد ابتعد عن الدوار :

ـــ لا عليك يا حجعلى ، اشربه أنت .. هنيئا إن شاء الله .

ويغوص الشيخ حسن فى تيه القرية ، وبعد حين يخرج العمدة ، ولولا غبش المغيب وقلة الضوء لتبينوا فى عينى العمدة احمرارا ما عهدوه قط ، ولتبينوا أيضا آثار دموع فاضت على وجه العمدة ، فأضفت حيث فاضت لالاء وبريقا يتألقان على جانبى وجه الشيخ الذى علاه غبار السنين .

وقال الشيخ رضوان للعمدة :

ـــ ما للشيخ حسن .. خرج وكأنه غاضب ؟ !

فقال العمدة فى صوت عميق :

ـــ لا .. ابدا .. وإنما كلفته بأمر ذهب يقضيه لى .

قال العمدة جملته وكأنما كان قد حفظها عن ظهر قلب ، ورددها كثيرا فى داخله قبل أن يقولها للقوم . وادرك الجالسون أن العمدة لا يريد أن يفضى بشىء مما كان بينه وبين الشيخ حسن ، وإن كان الشيخ رضوان يأبى أن يصمت فهو يقول :

ـــ لقد رفض حتى أن ينتظر شربات ابنه .

وقبل أن يجيب العمد يكون أحمد أبو خليل قد جاء فيلقى السلام ، ولا يجيبه العمدة وإنما هو يجابهه قائلا :

ـــ الم تجد غير سعدية المتزوجة لتحاول الزواج بها أيها الضائع ؟

ويقول أحمد وقد ألقى على وجهه غشاء من البلاهة :

ـــ انا يا حضرة العمدة ؟ .. سامحك الله يا حاج إبراهيم . إن كان هذا لأجل الفدان فخذه بلا ثمن ...

فيقول الحاج :

ـــ يا ابنى حد الله بينى وبين فدانك هذا ... وإن كان فدانا فى الجنة .. اجب العمدة عما سألك عنه .

فقال أحمد :

ـــ انا يا حضرة العمدة لا أصلح للزواج .

فيقول العمدة ساخطا :

ـــ لعن الله الزواج وسنى الزواج .. اسمع يا ولد ، أقسم بالله العلى العظيم ، إن سمعت انك ذهبت إلى الحارة التى فيها سعدية لاقطعن اسبابك بالقرية جميعا .. اتسمع ؟ ..

ويرتجف احمد من هول الوعيد ، ويقول فى خشية :

ـــ امرك يا حضرة العمدة .

ويطرده العمدة فينصرف ، ويدهش القوم جميعا فإن المقدمات لم تكن مؤدية لهذه النتائج ، ولو دروا ما كان بين العمدة وبين الشيخ حسن لعرفوا انها ثورة لم تجد طريقا لها إلا أحمد .. ولو كان صالح قد حل محل أحمد لباتت سعدية طالقا فى ليلتها تلك .

وقال الحاج إبراهيم :

ـــ وماذا يفعل صالح مع زوجته ؟ ... إنه لا يملك ما يصلحها به يا حضرة العمدة .

وكان العمدة فى هذه اللحظة قد يئس من أى خير يأتيه على يد صالح بعد أن عرفت من الحاج إبراهيم ضيق يده ، كما

انه كان فى هذه اللحظة عزوفا كل العزوف عن المال والرشوة فقد شق عليه مصرع هذه الصداقة الطـويلة ، وقد ادرك ان الخنجر الذى صرعت به هذه الصـداقة لم يكن إلا المال الذى تكدس عنده والذى نفر عن صاحبه الشيخ حسن .. وهكذا الت به لحظة روحانية قلما تواتيه . فقال للحاج إبراهيم :

ـــ اسمع يا حاج .. اذهب إلى سعدية الساعة وقل لها إن العمدة يهددها إن لم تبت ليلتها فى بيت زوجها ، فإنه سيفعل بها الأفاعيل .. وقل لها أيضا إنه لا يريد أن يسمع بغضبها مرة اخرى .. ألم يعد لنا عمل إلا هى وزوجها ؟

ويقوم الثلاثة داعين للعمدة .

ويقوم العمدة إلى بيته .. وتلقاه زوجته فى بشاشة وابنته فى تنظر ، ولكنهما ما إن تريا وجهه حتى تصبحا كلتاهما حزينتين ، فأما الزوجة فلأن زوجها حزين ، وأما الابنة فلأنها تدرك ما كان .

وتسأل الزوجة :

ـــ مالك يا شيخ زيدان ؟ كفى الله الشر .

ويقول الشيخ زيدان :

ـــ جاءنى الشيخ حسن اليوم يخطب درية بنتى لابنه فخرى فرفضت ، فمشى غاضبا .

وقالت درية دون أن تحس :

ـــ لماذا يا أبى ؟

ونزع الأب من السؤال .

ـــ لماذا ؟؟ .. وأنت التى تسألين .. لماذا .. ؟ ألا تعرفين لماذا ؟

وتثوب درية إلى نفسها قائلة :

ـــ اقصد لماذا اغضبته يا أبى ؟

ويقنع الأب نفسه بأن هذا هو ما قصدت إليه الابنة .

وتقول الأم :

ـــ فخرى طيب وابن حلال .. ولكنه فقير .

ويقول العمدة :

ـــ وهذا ما قلناه ..

وتقوم درية إلى غرفتها ، وتفتح شباكها ذا السور الحديدى وتطل على الباحة والذكريات ، والماضى الذى كان قريبا فأصبح بعيدا ، والشجرة التى اظلت وصار ظلها لهيبا ، والليل الذى كان نجوى فأصبح شقاء ...

لماذا يا أبى ؟ !

— ٧ —

الشيخ عبد الودود مأذون بلدة السلام رجل طويل القامة عريض المنكبين ، ليس بالسمين المفرط ولا هو بالهـزيل الذى تأخذه العين ، جامد الوجه إن رايته خيل إليك أن العاطفة لم تمر على وجهه فى يوم من الأيام ، يضـحك إن ضـحك بفمه يوسعه حسبما يقتضى سبب الضحك ، فإن اضطره الأمر إلى القهقهة خرجت من حلقه ولكنه أبدا لا يضحك من قلبه ، وإن حزن الشيخ عبد الودود فهو لا يحتاج إلى تعبير جديد يضفيه على سحنته ، فهى عبوس لا تحتاج إلى علامات أخرى لتكون حزينة .

والشيخ عبد الودود رجل نقى السريرة ، سريع إلى تصديق ما يسمعه تسهل مخادعته ، فإن ألقيت إليه مثلا أن إنجلترا قد احتلت لندن أسرع يقول لك : « سبحان الله . ! أهكذا .. ؟ ومتى كان هذا ؟ » فإذا أنت لم تبتسم وظللت تروى عليـه كيف أن إنجلترا خدعت لندن وأوهمتها أنها تساعدها ، ثم احتلتها ولم تقبل أن تتركهـا أبـدا ، راح يحـوقل ويسـتعيذ بالله من الشيطان . وإذا أنت قلت له إن الإنجليز قد تدخلوا فى الأمر ، وأنهم الآن يحاولون أن يعقدوا صـلحا بين إنجلترا ولنـدن ،

قال لك « والله يشكر الإنجليز » . وهكذا تستطيع أن تصل به إلى تصديق أية خرافة تلقيها عليه ، على شرط ألا تضحك وأنت تلقى هذه الخرافة . وهو يعلم فى نفسه هذه الطيبة ، ولذلك فهو حريص كل الحرص إن أنت حاولت أو حاول غيرك أن يتحدث معه فى أمر ينتهى به أن يخرج بعض المال من حزامه ، نعم حزامه وليس حافظته . إنك لا تحتاج إلى كثير ذكاء لتخدع الشيخ عبد الودود ، فلترو عليه ما شاء خيالك من خرافات فسيصدقها ، ولكنك — مهما يكن ذكاؤك — لن تستطيع أن تنال من الشيخ عبد الودود قرشا واحدا وإن كان هذا القرش ذاهبا إلى أمر فيه خير للشيخ عبد الودود نفسه ، فإن هذا الخير مهما يعظم أمره أقل شانا وأهون خطرا من إخراج قرش كان قد استقر غير مفزّع ، وهذا غير قلق فى أموال الشيخ عبد الودود .

والشيخ عبد الودود — كما قد عرفت — يملك عشرة أفدنة يزرعها لحسابه الخاص ، لا يؤجر منها قيراطا ولا يزارع فى سهم منها أحدا . وإنما هو الذى يزرع ، ويكترى لها العمال بعد أن ينزل بأجورهم إلى أقلّ حضيض يمكن أن تنزل إليه . والشيخ عبد الودود — كما تعرف — مأذون البلدة ، وتلك مهنة ذات خطر وربح ، والبلدة — كما لا تعرف — عدة بلدان ، فإن للقرى عندنا ضواحى كثيرة تتبع البلدة الأصلية فى الحكم والمأذونية . وهكذا كان الشيخ عبد الودود ذا موارد ضخمة تنسكب عليه من الحب والكره ، والعجيب أن هذه العواطف التى كانت سبب نعمته لا تعرفة سبيلا إلى قلبه أبدا . فقد

كان لا يعرف الحب لغير المال ، ولا يعرف الكره لغير إخراج هذا المال . المهم أن الشيخ عبد الودود كان يستقبل هذه الأموال جميعها مع ما تخرجه الأرض من محصول ، ثم يخرج لبيته ما يقيم الأود أو يكاد ، ويحتفظ بباقى المبالغ جميعها حتى تتم ثمن فدان فيشتريه .

وقد آن لنا الآن أن نروى قصة الحزام الذى عرضنا له فى أول هذا الحديث . فقد كان الشيخ عبد الودود يضع هذه الأموال فى حزام خاص يربطه حول بطنه ويلصقه به ما أمكن ، حتى يحسه دائما ، وحتى يظل واثقا من بقائه حيث هو ، وحتى لا تبتعد هذه الأموال من جسمه . وهل كانت إلا جزءا من جسمه ؟ وقد صار هذا الحزام مشهورا فى القرية والقرى المجاورة شهرة الشيخ نفسه . لقد كان الشيخ عبد الودود حريصا كل الحرص على إلصاق هذه الأموال بكيانه ، لا يفصلها عنه إلا ذلك الجلد الذى صنع منه الحزام والذى لا يملك حيلة فيه . فلو كان مستطيعا أن يضع المال على نفسه بغير حائل من الحزام لفعل . وقد يرفع الشيخ عبد الودود الحزام عن نفسه مرة فى الشهر أو مرتين حين يستحم ، ولكنه — إن فعل ذلك — فهو إنما يفعله والحزام منه بمرصد ، فإنه إن سمح بأن يفارق الحزام جسمه فهو لا يسمح مطلقا بأن يفارق عينيه .

ومع هذا الخوف الراعد الذى يملك الشيخ عبد الودود على أمواله ، نجد الشيخ فى عامة حياته شجاعا يخوض الليل الأسود والطريق المقفر بلا صديق ولا رفيق ولا حارس ، وإن

يكن هذا الخوض فى سـبيل التزش الذى يكسبه من عقـود الزواج والطلاق ، إلا أنها ـ على أية حال ـ شجاعة تحمد له . وقد بدأ هذه الشجاعة منذ عين مأذونا ، وقد قام برحـلاته الأولى وهو لا يكاد يقيم خطواته من فرائص ترتعـد به وهلع يهز فؤاده هزا .. ثم تعود الطرق المظلمة والليـالى الحـالكة فاصبحت العادة شجاعة ، واصبح يقطـع الطريق إلى اعمال البلدة وقراها المجاورة وحيدا بلا صديق ولا رفيق ولا حارس .

ولا يحسبن احد أن هذه الأعمال قريبة من قرية السـلام فإنها قد تبعد عنها كثيرا ، والطرق إليها وعـرة لا تحيط بها إلا الحقول خلت من زارعيها بلا دور فيها ولا اناس ، وقد لا تخلو من العفاريت التى خلفها الوهم فى كثير من مناطق هذه الطرق .

ولكن الشيخ عبد الودود كان يقطع هذه المخـاوف جميعها ليعقد زواجا أو يقرر طلاقا ، وحول وسطه الأمـوال تكدست مئات ومئات . وفى هذه الليلة خرج الشـيخ عبد الودود من قرية السلام بعد صلاة المغرب مباشرة ، قاصدا إلى عزبة النمايلة الواقعة فى نطاق دائرة السلام إدارة ومأذونية . وكان خروجه هذا بناء على دعوة وافته قبيل العصر تطلب إليه أن يذهب إليها ليطلق اثنين كان قد زوجهما منذ خمس سنوات ، وكانت له فلسفته فى الطلاق تلك التى رواها العمدة لزواره . ولكن العمـدة نسى أن يذكر السـبب الوحيد فى الطـلاق ، ذلك أن الشيخ عبد الودود يخرج من الطلاق غالبا دون أن يتنـاول العشاء الذى يتاح له فى الزواج دائما . ثم إن اجره فى الطلاق معلوم لا يزيد مليما عما قدرته له الحكومة ، والفلاحون أعلم

الناس بما تقدره الحكومة فى مثل هذه الامور . أما فى الزواج فقد كان الشيخ عبد الودود يطمع إلى جانب العشاء ان يأخذ ما يزيد على اجره المعلوم .

خرج الشيخ من قريته قاصدا إلى الرجل الذى سيصب فى حافظته ، ومن ثم فى حزامه خمسة وعشرين قرشا ثمنا له على تطليق زوجته . وأخذ الشيخ يفكر فى زهادة المبلغ الذى يتقاضاه إزاء هذا المعروف الكبير الذى سيؤديه لذلك الرجل .. إنه سيخلصه من زوجته التى آذته ونكدت عيشته ، ثم لا يصيب من بعد إلا هذه الصبابة الضئيلة من المال . ولم يكن الشيخ يعلم — ولا يعنيه أن يعلم — إن كانت المراة هى التى آذت الرجل المطلق او أن الرجل هو الذى آذاها ، وإنما كل همه ذلك المبلغ الذى سيجرى إلى جيبه .

وبلغ الشيخ منزل الطلاق وراح يقول للزوج :

— إن ابغض الحلال عند الله الطلاق .

وراح يقول :

— تمهل واصبر وفكر ، وساعود إليك غدا .

وهو فى صميم نفسه يتمنى الا يطيع الرجل نصائحه التى كان يلقيها إلقاء يجرى به لسانه فى موات ، فلا تبلغ شفتيه حتى تصبح غمغمة غير مبينة يكاد السامعون — لولا سابق العلم بها — الا يفهموا منها شيئا .

ويصر الرجل على الطلاق كما قدر الشيخ عبد الودود ، ويأخذ الشيخ الخمسة والعشرين قرشا ويترك البيت بلا عشاء — كما قدر أيضا — ويأخذ سبيله إلى قرية السلام .

الليل اسود والطريق طويل مقفر ، ولكن الشيخ عبد الودود يسير يفكر فى هذا المبلغ الجديد الذى اضافه إلى ثروته ، والذى لم يأخذ طريقه بعد إلى الحزام ، فقد تعود الا يضيف إلى الحزام دخله الجديد إلا فى البيت . وراح الشيخ يحسب وما كان محتاجا لحساب ، ولكنه يلتذ التفكير فى المبلغ الذى يرتفع كل لحظة فى حزامه .. راح يحسب .. لقد كان معه سبعمائة وخمسة وعشرون جنيها وخمسة وعشرون قرشا . والآن حين يصل إلى البيت ، سيصبح بالحزام سبعمائة وخمسة وعشر ...

ـ قف .

صوت انبعث من الليل واضحا جليا ، ولكن الشيخ لا يصدق اذنيه ويهم بالمسير بعد أن توقف هنيهة ، ولكن الصوت يعود مرة اخرى !

ـ اقول قف .

ويقف الشيخ لانه اصبح لا يستطيع المسير ، وفى همهمة لا يفهمها هو يقول :

ـ من ؟

ـ عفريت .

ـ عفريت ؟

ـ نعم .

ـ بسم الله الرحمن الرحيم .. الله لا إله إلا هو ...

ويصل إلى قفا الشيخ حديد صلب بارد ، ويزداد التصاق

الحديد بقفا الشيخ فيحس عينى بقدقية ملتصقة بشدة إلى قفاه كما يلتصق الحزام بجسمه ، ويرتفع صوت الشيخ :

ـــ الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا . .

ويأمر الصوت الممسك بالبندقية فى صوت خفيض حازم :

ـــ اخرس .

ـــ حاضر .

ـــ هات .

ـــ ماذا ؟

ـــ نقودك .

ويغمغم الشيخ قائلا :

ـــ ليلة سوداء . . عفريت أم لص ؟

ـــ ومالك انت ؟

ـــ إنه مالى والله العظيم .

ـــ إذن هاته .

ـــ كانت العفريت ارحم .

ـــ اسرع .

وتومض فى راس الشيخ فكرة رائعة ، لم لا يعطى هـذا الرجل حافظته التى لا تحمل غير خمسة وعشرين قرشا وثلاثة قروش كانت فيها قبل أن يخرج من البيت ؟ والرجـل لن يعرف من امر الحزام شيئا فتصبح المصيبة هينة . وأين ثمانية وعشرون قرشا من سبعمائة و . . وقبل أن يكمل الشيخ تفكيره يصيح به حامل البندقية وقد اصبح فى مواجهته :

ـــ اسرع .

ونظر الشيخ مليا فى اللص الذى يهدده فلم يتبين منه فى غبش المساء غير وجه يحيط به اللثام من جميع نواحيه ، وقد حمل بندقية قصيرة مقروطة ووضع فوهتها فى صدر الشيخ ، وعاد اللثام يقول :

ـ أسرع .

واخرج الشيخ حافظته وهو يقول فى تظاهر بالحزن :

ـ تفضل !

ويأخذ اللثام الحافظة ويمد يده مرة أخرى :

ـ أسرع .

ـ ماذا ؟

ـ هات .

ـ ماذا ؟

ـ الحزام .

ـ الماذا ؟

ـ الحزام .

ـ اى حزام ؟

ويمد اللثام يده إلى بطن الشيخ عبد الودود ، ويضع يده من فوق الجلباب على الحزام .

ـ هذا الحزام .

ـ يا ابنى اتق الله ..

ويدفع اللثام المقروطة فى صدر الشيخ وهو يقول :

ـ أسرع وإلا قتلتك .. أسرع .

ـ يا أخى حرام .. حرام .. خذ نصف ما به .

ـــ هات الحزام .. هات الحزام قلت لك .

ومد اللئام يده إلى جلباب الشيخ عبد الودود وجذبه منه جذبة قوية ، شقت الجلباب عن قميص أبيض أصبح هو الحائل الوحيد بين الحزام وبين يد الرجل .

ـــ هات الحزام .

وتمالك الشيخ عبد الودود نفسه بعض الشيء وهو يقول :

ـــ والله يا بنى انا لا استطيع ان اعطيك الحزام بيدى ، فخذه انت إن شئت .

ـــ فارفع هذا القميص .

ـــ لا استطيع يا ابنى .. يدى لا تقوى .

ويمزق صاحب اللثام القميص ايضا ، ويفك اربطة الحزام فيخلص إليه ، فيدفع الشيخ بعيدا عنه ويصيح فى وجهه :

ـــ امض .. اذهب الآن .

ـــ اذهب ؟

ـــ اسرع .

يقولها ويطلق عيارا فى الهواء فينكفىء الشيخ من الرعب ، ولكن قدم صاحب اللثام تعاجله بركلة فيقوم مهرولا طريقه إلى البلدة ، ينكفىء فيحس قدم اللص التى ركلته فيقوم ثم ينكفىء ، ويقوم حتى يدخل البلدة ذاهلا هلعا ينكفىء لا يسمع حتى تلك الاعيرة التى تعالت متكاثرة بعد العيار الذى اطلق لإخافته . فقد ظن الحراس ان هذا العيار قد اطلق لإيقاظهم ، فراحوا يطهرون مقدار يقظتهم باعيرة عالية الصوت تجاوب صداها فى وسيع الفضاء .

— ٨ —

رجع المشايخ الثلاثة من عند العمدة وقد أذهلتهم فى ليلتهم تلك أمور كثيرة . عجبوا أول ما عجبوا من الحاج إبراهيم وغضبه ، وقد تعودوا أن يمزحوا معه فى شأن هذا الغدان وتعود هو مزاحهم ، وكان يقبله لأنه لا يمس حقيقة نفسه ، فقد كان يدرى أن يده لم تمتد يوما لغير الحق ، وقد كان يحسب إخوانه يدركون أنه لن يرضى لنفسه إلا هذا الحق الذى ألزم به نفسه . ولكنه حين رأى مزاحهم يلقى فى مواطن الجد ، اتخذ هذا الموقف الحازم وألزمهم حدا يقفون عنده . وعجبوا من إقبال الشيخ حسن الضاحك المستبشر ثم انصرافه الغاضب العجلان ، ثم عجبوا من ثورة العمدة بأحمد أبى خليل ، وميله إلى صالح بعد أن عرف فقر صالح وعسر يده ، ومع تمام علمه بغنى أحمد وكرمه إذا اقتضى الأمر كرما . وراحوا يتساءلون فى أنفسهم أهى غمزات الحاج إبراهيم حركت فى العمدة بقية عفة ، أم أن العمدة غاضب الشيخ حسن فضاق صدره وأفرغ غضبه على أحمد .. أيا كان الأمر فقد مشى ثلاثتهم صامتين يدير كل منهم الأمور فى رأسه ولا يبين عنها .

وعلا ضجيج المساء من حولهم فازداد صمتهم ، فليس

لأمسيات الصيف فى الريف سكون ، فثمة الـكلاب النابحـة تتناوب النباح كأنها موكلة بالسكون الا يسكن ، فإن مـرت هنيهة لم يجب فيها كلب كلبا علا نقيق الضفادع وتصاعد من كل اقطار الأرض ، فيخيل إليك أنها تعيش فى البيوت والطرق والحقول وكل مكان ولا تقصر سـكناها على الترع ومـواطن الماء ، وقد يطيب لها من حين إلى حين أن تقطع ضوضاءها طفرة واحدة ، ومن ثم تتبين صـوتا منفـردا كان يخالط اصـواتها فيكونان معا نغما واحدا تعوده أبناء القرى ويضيق به زوارها . إن صمتت الضفادع صات هذا الصفير وحده ، فهـو صـفير تسلخت نغماته ودقت فما فيه من حلاوة الصفير شىء . إنها الصراصير تشارك فى العدوان العنيف على سكون القرى .

وكان المشايخ الثلاثة غارقين فى صمتهم تصل إليهم هـذه الأصوات فلا يحسون من أمرها شيئا ، فهى توافيهم مع غروب الشمس فهم قد عودوها كما عودوا أن تغرب الشمس فيحـل المساء ، ولكن صوت طلق نارى اندفع إلى آذانهم غير بعيـد وغير قريب أيضا ، ثم تبعه طلق ثان فثالث فرابع ، فتضاحك الحاج على وقد انتوى أن يقطع صمتهم الذى طال به الأمد :

ـــ يا أخى أولاد الكلب هؤلاء لا يكفون عن إطلاق النـار فى الهواء ، فإن هاجمهم لص ولوا الفرار .. أتراهم يحرسون القطن من الهواء الذى يصوبون إليه أعيرتهم ، والله صـدق من قال :

وإذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا

فقال الشيخ رضوان :

ـــ يا أخي أنت لا يسلم أحد منك أبدا .. هل أنت مسحوب من لسانك يا أخي ؟ .. وماذا فعل بك هؤلاء الخفراء أيضا ؟ إنهم ينبهون بعضهم بعضا حتى إذا جاء اللص ...

فقاطعه الحاج علي قائلا :

ـــ يفرون جماعة .

ـــ يا رجل حرام عليك .. أنت حاج !!

ـــ وما دخل الحج بهذا .. ؟ !! أكنت حججت حتى لا أقول الحق ؟

ـــ أي حق ؟

ـــ حقك علي .

ـــ وأنا مالي حقي أو حقك .. اتراك فرغت من الخفراء وتريد أن تستدير إلي .

ـــ لا والله ، ولكني أعرف أنك تحمل لي بعض الغضب في نفسك منذ النقاش الذي دار بيننا عند العمدة ، وأنا غلطان .

ـــ النهاية يا حجعلي .

ـــ لا تكن غضوبا .. أنا غلطان .. أنا غلطان لك وللحاج إبراهيم .

وحينئذ أجاب الحاج إبراهيم في شيء من عدم المبالاة :

ـــ يا سيدي العفو ، لا غلط ولا يحزنون .

فقال الحاج علي وقد لطف من صوته بعض الشيء :

ـــ والله ما كنت أعلم أنك ستغضب كل هذا الغضب ، فقد تعودت أن أمازحك بشأن هذا الفدان .

فقال الحاج إبراهيم :

— المزاح شيء والجد شيء .. النهاية ساترككم هنا لاذهب إلى البنت سعدية وآخذها إلى بيت زوجها .

فقال الحاج على :

— وستأتى بعد هذا إلى الدكان .

فقال الحاج إبراهيم :

— سأرى .

فأقسم الحاج على عليه أن يأتى ، وراح يكرر له الاعتذار بعد الاعتذار حتى لان جانبه ووعده أن يلحق بهما . ثم تركهما وحاد إلى طريقه ، واكملا هما طريقهما إلى الدكان وما كادا يجلسان به حتى اقبل إليهما احمد ابو خليل ، وما إن رآه الشيخ رضوان حتى همّ بالقيام فإذا احمد ينكب على يده يقبلها .

— لماذا يا عم الشيخ رضوان ؟ ماذا فعلت لك حتى تغضب علىّ كل هذا الغضب ؟

فلوى الشيخ رضوان راسه عن محدثه ، وقال الحاج على :

— كيف تسأل ؟ الا تعرف ؟

فقال احمد :

— ليس بينى وبين عمى الشيخ رضوان شيء .. إلا إذا كان غاضبا ، لانى سألته عن صحة حديث لم اكن متاكدا منه .. ثم تاكدت انه صحيح وارد فى صحيح البخارى .. فهل حرم السؤال يا عم الشيخ رضوان ؟ .

فقال الشيخ رضوان فى خيلاء ان وضح علمه بعد أن كان الحاج على ينكره عليه وقال :

— يا بنى مالكَ وللعلم .. ؟ !

فقال الحاج على :

ـــ أوجدت الحديث فى البخارى ؟

فقال احمد :

ـــ اى نعم ؟

فقال الحاج على :

ـــ ونعم يا ابنى بالعلم .

فقال احمد :

ـــ وهل يستغنى أحد عن العلم يا عم الشيخ رضوان ؟

فقال الشيخ رضوان :

ـــ النهاية ، غفر الله لكَ .

وسألَ احمد الحاج على :

ـــ فأين عمى الحاج إبراهيم ؟

فقال الحاج على فى مزاح قريب من الجد :

ـــ ابعد عنه .. لم تعد بينكما صلة منذ اليوم .. لقد اقسم طلاقا ثلاثا الا يشترى منكَ ندانكَ مهما يكن ثمنه .

فنتر احمد يده وقال استهتار :

ـــ يا عمى صل على النبى .. غدا يجد الف شيخ وشيخ يؤكدون أن يمينه غير محرجة ولم تقع ، وان لا بأس عليه ان يشترى الندان ما شاء له الشراء .

وهنا صاح الشيخ رضوان فى غضب :

ـــ اى مشايخ تعنى يا ولد ؟

فعاد صوت احمد إلى سابق جده :

ـــ استغفر الله يا عمى الشيخ رضوان .. إنما اقصد المشايخ

أصحاب المصالح الذين يبيعون ذمتهم لمصالحهم .. مثل الشيخ عبد الودود وأمثاله .

وهدأ الشيخ رضوان وضحك لأحمد . ولكن الحاج على قال :

ـــ لا والله ما أظن الحاج إبراهيم إلا صادقا فى يمينه وفى ميتـــه .

فقال أحمد :

ـــ والله ما صادق إلا أنت يا عمى الحاجعلى .. إنما أنت رجل نقى السريرة صافى النفس .. النهاية .. ما الذى أثار على العمدة هذه الثورة .. ؟ ! أكل هذا من أجل الحاج إبراهيم ؟ أتراه جازت عليه حيلة اليمين بالطلاق فاعتقد أن الحاج إبراهيم صادق فيما ذهب إليه من أنثى أغازل سعدية .

فقال الحاج على :

ـــ والله أنا أرى فى الأمر سرا ، وخاصة بعد أن صارحه الحاج إبراهيم بأن صالحا لا يملك شيئا .. فغضبه كان وهو يائس من صالح كل اليأس .

وقال الشيخ رضوان :

ـــ والله العمدة رجل طيب وابن حلال ، وقد رأى أن الاعتداء على الحرمات أمر لا يجوز .

فقال أحمد :

ـــ الله يشهد ما اعتديت أبدا .

وقال الحاج على :

ـــ إنه رجل طيب فعلا ، ولكن اسمعوه غالية جدا .

فقا ل الشيخ رضوان :

ـــ يا رجل اتق الله .. اغلب العمد على هذه الحال .

فقال احمد :

ـــ والله لقد كنت مستعدا له استعدادا ضخما ، ولكنه قطع رزقه بيده .

فقال الشيخ رضوان :

ـــ ولماذا كان استعدادك ، لابد انك كنت تنوى شيئا .

فقال الحاج على :

ـــ ارحم الولد يا شيخ رضوان ، فقد اعد لك هدية عظيمة .

فقال الشيخ رضوان :

ـــ إنى اقول الحق وامرى لله .. العمدة كان محقا الليلة .

فنظر احمد إلى الحاج على مستنجدا ، فقال الحاج على :

ـــ اكل هذا لانه أوصى بك لتبقى معلما فى القرية ؟ .. قل لى بذمتك كم دفعت له من اجل هذه التوصية ؟

فقال الشيخ رضوان :

ـــ لا شىء واقسم بالله العظيم .. بل إنه ..

وقطع الشيخ رضوان جملته فى حين اكملها الحاج على :

ـــ نعم .. نعم .. بل إنه زاد مرتبك كخطيب للجامع .. وما عليه ان فعل .. عشرة افدنة موقوفة على الجامع يأخذ ريعها جميعه ولا يدفع إلا اجرك ..

فقال الشيخ رضوان :

ـــ يا رجل اتق الله ..

فقال الحاج على لاحمد :

ـــ واين هديتى يا سى احمد ؟

فقال احمد :

ـــ تحت الأمر والإذن يا عمى الحاجملى .

فقال الشيخ رضوان بصوت فيه دلال :

ـــ اى هدية يا ولد ؟

فقال احمد وقد احس أن مطلبه فى يده :

ـــ هدية على ذوقك يا عمى الشيخ .. قطعة حرير قفطان لا مثيل لها ..

فقال الشيخ رضوان مسرعا :

ـــ هديتك مقبولة يا ابا خليل .. والله إنك رجل طيب وابن حلال يا سى احمد .

فقال احمد وقد غمره الفرح :

ـــ انت الخير والبركة يا شـــيخ رضوان .. وما هـــذه الهدية .. ؟ ! الهدية الحقيقية ستراها عندما يتم المطلوب بإذن الله .

فضحك الشيخ رضوان وقال من خلال قهقهته :

ـــ وما هو المطلوب يا ترى ؟

فقال احمد فى صوت اسيف جاد :

ـــ هل يرضيك يا عم الشيخ رضوان أن تعاشر زوجة زوجها وهى تكرهه أشد الكره ؟ وهل يرضيك ويرضى الله أن تعـــاشر زوجة زوجها وهو لا يقدم لها ما يقوم ببيتـــه ؟ وإنما يلقى فى

يدها بضعة قروش ضئيلة فى كل موسم ولا يحضر لها ما يكفيها من الذرة ، ويأمرها أن تعمل طول يومها إن لم يكن فى جمع القطن فهو يأمرها بأن تخبز للناس خبزهم لقاء بضعة أرغفة ، فتظل — وهى الفتاة فى ربيع العمر — بين الدور والحقول شاردة ، ولو كانت تحب زوجها لهان الخطب ، ولكنها تكرهه يا عم الشيخ رضوان ولا تطيق أن تراه .. ارحمها يا عم الشيخ رضوان .. ارحمها لله .

فقال الشيخ رضوان :

— وماذا يمكن أن افعل يا أحمد ؟

فقال الحاج على :

— لا حول ولا قوة إلا بالله يا شيخ رضوان ، إننا نحن من نفعل .. وما فائدة صداقتنا للعمدة إن لم نستطع أن نقوم بمسألة صغيرة مثل هذه ؟

فقال الشيخ رضوان :

— النهاية يا بنى ، ربنا معنا .

فقال أحمد :

— أطال الله عمرك يا عم الشيخ رضوان .. وبارك ..

وقبل أن يتم جملته دخل إلى الدكان الحاج إبراهيم الحسينى ، وما إن يرى أحمد حتى تعود إلى وجهه تلك الغمامة التى خرج بها من عند العمدة ، ويلقى الحاج إبراهيم تحية ما إن سمعها الثلاثة حتى أدركوا ما بنفس الحاج من ضيق ، ولم يسكت الحاج عند ذاك بل هو يقول :

ـــ ماذا ؟ ألم تجدا إلا هذا الولد لتسامراه ؟

وقبل أن يجيب أحد سارع أحمد قائلا :

ـــ ماذا فعلت لك ياعم الحاج إبراهـــيم ؟ .. إن كان عن الفدان ..

فقاطعه الحاج إبراهيم قائلا :

ـــ ألم يخبرك صديقك أننى اقسمت يمين طلاق الا أشترى هذا الفدان مطلقا ؟

ـــ ومع ذلك أنا تحت أمرك ، أنا والفدان وكل ما أملك . ولكن لماذا أنت غاضب علىّ ؟

ـــ يا ابنى أنا أغضب على كل إنسان لا يراعى الله فى أعماله .

ـــ وأنا ماذا فعلت لك ؟

ـــ فعلت ما فعلت والسلام .

ـــ والله يا عم الحاج إبراهيم إنك لو عرفتنى على حقيقتى لوجدتنى كما تحب . فأنا كريم ويدى مفتوحة ، وخـــدام الأصدقاء ولا أبخل مطلقا .

ـــ يا بنى الكريم كريم على نفسه .

ـــ وعلى أصدقائه أيضا يا عم الحاج إبراهيم .

ـــ لا يهمنى يا بنى كرمك أو بخلك .

وهنا قال الحاج على :

ـــ ماذا يا أحمد ؟ . أتظن أن الحاج إبراهيم يهمه كرمك ؟

فقال أحمد :

ـــ لا والله ، فإنى أعرف الحاج إبراهيم منذ أنا طفل صغير ، ولكن بودى أن يقبل الهدية التى أعددتها له .

فقال الحاج إبراهيم فى غضب حاول جهده ان يكبته :

ـــ أنت يا ولد تحاول رشوتى .

ـــ حد الله بينى وبين ذلك يا عم الحاج إبراهيم ، وإنما أقدم إليك هدية صداقة وصلح بيننا .

فقال الحاج إبراهيم وغضبه مكبوت ما زال :

ـــ اسمع يا حجعلى ، لقد الححت علىّ أن أحضر إليك وقد جئت حتى لا تغضب ، ولكن إن كنت قد جئت بى لأهان فى مجلسك ، ولأرمى بأننى لص يرشونى مثل هذا الغلام ، فاسمح لى أن أقوم .

وقبل أن يجيب الحاج على سارع احمد قائلا :

ـــ لا تغضب يا عم الحاج إبراهيم فإنى أنا الذى سأنصرف ، ولكن الذى أعرفه أن الهدية تسمى رشوة إذا كان مقدمها يريد أمرا عند من يقدمها إليه ، ولكننى لا أريد منك شيئا .

ـــ لعلك لا تريد شيئا ، ولكنك تريدنى أن اغض عينى عنك ولا ارفعها ، وكيف يمكننى أن ارفعها وقد خفضتها بهديتك ... لا يا بنى ، أنا رجل كبير وأخلاقى تكونت ، ولم يعد فى الإمكان تغييرها .. لا يا بنى لا .. أغناني الله عن هداياك .

ـــ أمرك يا عم الحاج إبراهيم .. أمرك .. سلام عليكم .

وقبل أن يخرج احمد من الباب تدخل إلى الجمع امراة عرفها الجميع ، فتصايحوا بين ترحيب وعجب أن تقصد إليهم زوج الشيخ عبد الودود وما تعودوا أن يروها فى غير دارها ، وقد اتخذت من الثياب ما تواضعت النسوة على ارتدائه إن هن

أزمعن أن يلتقين بالرجال أو يخرجن إلى الطريق ، فهم لم يروها إلا فى ثيابها السوداء مسدلة عليها حتى أخمص قدميها وقد التفت على رأسها خمارا ، أما الآن فهى تطالعهم وقد ارتدت جلبابا ملونا فاقع الحمرة نبتت فيه ورود خضراء ، واتخذت على رأسها منديلا تلق المكان . فقد كان وجهها أصغر من أن يسع هذا الذعر الذى ألقى عليه ، فامتد هذا الذعر إلى منديلها بل إلى جلبابها المنتفض .

ـ أدركونى .

ـ خير يا أم إسماعيل ؟

ـ الشيخ عبد الودود .

ـ ماله ؟

ـ لا أدرى .

ـ ماذا تعنين ؟

ـ كنت انتظره فإذا هو يدفع الباب ، ثم ينكفىء على وجهه وهو يقول .. سرقنى ، ضربنى ، المقروطة ، الحزام ، سبعمائة وخمسة وعشرون جنيها وخمسة وعشرون قرشا ، والمحفظة وثمانية وعشرون قرشا ، سرقنى .. فرحت أربته وأحاول أن أهدىء من ثائرته ، ولكن الذى تملكه يأبى أن يزول عنه ، ثم قال فجأة : اذهبى إلى دكان الحاجملى واطلبى إلى الحاج على والشيخ رضوان والحاج إبراهيم أن يأتوا إلىّ .

فقال الحاج إبراهيم :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .. لا حول ولا قوة إلا بالله ، هلم يا رجال .

فقال احمد أبو خليل :

ـــ هلم .

فقال الحاج إبراهيم :

ـــ وانت إلى أين ؟

ـــ معكم .

ـــ لا إن الرجل لم يطلبك وما اظن الزيارة مناسبة فى مثل هذه الحال .. سنذهب نحن الذين طلبنا .

ـــ امرك .

وخرج القوم من الدكان ، وساروا طريقهم بعد أن اقفل الحاج على أبواب دكانه .

وما إن بلغوا بيت الشيخ عبد الودود حتى تقدمتهم زوجه إلى مكان زوجها ، وهناك التقوا بالرجل لم يبق منه إلا ذعر وألم .

وقص عليهم الشيخ عبد الودود ما كان من أمره وأمر اللص فى كلمات لا تكاد تكتمل وهى تخرج ، وإنما هو يقف فى منتصف الكلمات وقد بدا عليه انه يريد أن يلقى بحمله إلى اى إنسان ، ولكنه بعد أن يفرغ من القصة ويضع يده على موضع الحزام يحس بحمله كاملا لم ينقص .. بل لعله زاد ..!!

ولم يصبر الحاج إبراهيم بعد أن فرغت القصة بل هو يقوم إلى العمدة يوقظه ، ولا تلبث البلدة أن تصبح كلها فى يقظة كاملة ، فجميعهم مشغول ولا شغل ، وإنما هم يروون ما سمعوه ويزيدون عليه ما امتد بهم الخيال ، ولم يأت وكيل النيابة حتى

اصبح المبلغ المسروق من الشيخ عبد الودود سبعة آلاف جنيه ، وأصبح الشيخ عبد الودود بلا يد بعد أن قطعها اللص ، وبلا عقل بعد أن سلبت النقود عقله وهى ترحل عنه إلى اللص الذى هاجمه .

وجاء وكيل النيابة ومعه مأمور المركز ، فقد كان قطع الطريق أمرا تهتز له اركان الأمن . وبدأ وكيل النيابة التحقيق بينما بدأ المأمور مساوماته مع العمدة عما سيقدم للعشاء وللفطور ، فإن التحقيق سيطول إلى الصباح .

وانتهى التحقيق بقيد السرقة مع كل الظروف المشددة التى لازمتها ، من ظرف الليل إلى استخدام السلاح إلى غير ذلك .. كل ذلك قيد ضد مجهول .

وبهذا القيد بدأت فى القرية فترة جديدة من الزمان لم ترها فى ماضى ايامها ، ولم تفكر فى يوم ما انها ستلتقى بها على طريق الحياة .

— ٩ —

كان الليل قد خيم على القرية . فلا يقطع ظلامه إلا نار تحلق حولها القوم يعدون فيها جذوة الفحم التى لا تصلح الجوزة إلا بها ، وقد يعدو على ظلام الليل بصيص من ضوء المصباح يتسلل من شباك إحدى الدور ، فيمر بالظلام يكاد الظلام لا يحسه من فرط الضعف الذى يعانيه .

مرّ كمال بهذا الظلام وبهذه الخيوط المتهافتة من بصيص المصابيح ، يعبر كل شىء إلى ظاهر البلدة حيث يربض بيت النمرود ، وكان قد انقطع عنه أيامًا كثيرة فرغ فيها إلى المقروطة يستثمرها فتدر عليه المال الوفير . حتى إذا استولى الرعب على القرية والقرى المجاورة أحس أنه قد آن له أن يقطع إجرامه بعض الشىء حتى يعود إلى الناس بعض اطمئنانهم ؟ فيعود إليهم هو فى غفوة من هذا الاطمئنان فينال ما تصبو إليه نفسه .. خطة كان قد رسمها منذ أمد بعيد فهو ينفذها لا يحيد عنها قيد شعرة .

فإنه حين أصاب مبلغ الشيخ عبد الودود لم يكتف به ، بل انه فى الليلة التالية مباشرة ، هاجم عبد الرحمن افندى السلامى الرجل الذى ينافس العمدة على المنصب ، والذى يملك فى القرية

عشرين فدانا ، والذى لا يحمل فى جيبه اقل من مائتى جنيه ويودع البنك مئات اخرى . وقد كان يحمل هذه الجنيهات ليباهى بها الناس كلما اجتمع حوله الناس ، فما كان له شىء يباهى به إلا هذه الاموال .

وكان كمال قد عرف أنه قد ذهب إلى القاهرة وانه سيعود إلى القرية عند المساء ، وكان يعلم انه يقطع الطريق وحده من المحطة إلى القرية ، والطريق من المحطة إلى القرية محفوف من أحد جانبيه برمال الصحراء وتلالها .

وكان هنالك تل يعرفه كمال ، ومن وراء هذا التل خرج كمال وقطع الطريق على عبد الرحمن ، فأصاب منه فى ذلك اليوم المائتى الجنيه التى تعود أن يضعها فى جيبه ، وأصاب منه جنيهين وقروشا هى بقية جنيهات خمسة انتهبت الخمر وتذكرة القطار منها ثلاثة جنيهات إلا قليلا .

وهكذا وقعت الحادثة الثانية فى موعد لم تنتظر القرية ان تقع فيه ، فما عودوا أن تقع حادثتان على شخصين فى القرية فى ليلتين متتاليتين .

وقيدت الحادثة ضد مجهول .. !!

وفى الليلة الثالثة كان الخواجة استاورو تاجر القطن خارجا من القرية فى طريقه إلى القطار الاخير . وكان الليل اسود ولكن الخواجة كان مطمئنا لأن خفيرا نظاميا من قبل العمدة كان برافقه . ولكن الخفير النظامى كان اكثر جبنا من الخواجة حين وضعت المقروطة فى ظهره ، وحين طلب كمال من الخواجة

ان يعطيه ما يحمل من المال . وتسلم كمال المال وأمر الخواجة وحارسه ان يعودا ادراجهما إلى القرية ، واطلق خلفهما عيارا جعل الاعيرة تنطلق من الخفراء ، وجعل سكان السلام يطمئنون إلى ان الاعين من حولهم يقظة مفتحة ، تحيطهم بالأمن الراصد وبالسلاح القاتل لكل من يحاول ان يعدو عليهم ، وما عرفوا أن هذا العيار إنما كان إعلانا عن جريمة ثالثة تقع فى الليلة الثالثة .

. . . ما عرفوا ذلك إلا حين عاد الخواجة استاورو مع الخفير ، وقد اخذ الهلع بمجامع الخفير بينما راح الخواجة استاورو يهدىء من روعه ، فما كان يحمل غير خمسين جنيها وهى اقل من ان يفقد رجل مثل الخفير حياته من أجلها ، فقد كان يوشك من الخوف ان يموت .

كان كمال قد اعد الخطة بدقة . ومن ذلك الذى يظن ان قرية واحدة يعتدى على ثلاثة منها فى ثلاث ليال متوالية ؟

وقيدت الحادثة ضد مجهول . . .

وهل كان كمال إلا مجهولا ؟ ومن ذلك الذى يظن ان كمالا يستطيع أن يعتدى ، وهو من عاش عمره مرعى للاعتداء ، وموطئا للهوان ، وصوتا اجوف يشيع ميتا أو يزف عروسا ؟ وفى هذا المجهل ، وفى هذه الزاوية المتوارية عن الاعين ، وفى هذه الغمرة من حقارة الشأن ، كان كمال قد اعد الخطة وانتفع بكل شىء ، حتى بهذا الاحتقار الذى كان يتمتع به ، فقد كان يتوارى فى هذا الاحتقار بعد كل جريمة فلا يفكر احد فيه ،

وتقيد الحادثة ضد مجهول . فقد كان جبابرة الليل فى القـــرية فى مكانهم عند كل حادثة ، وكان الجميع يرونهم حين تأتى إليهم انباء الحوادث فيجدونهم مذهولين معهم . ولا مجـــال لشك فى صدق ذهولهم فقد كانوا معهم .

وإن خطر لواحد ممن كان يراهم ومعهم كمال ان يســـأل عن كمال اين هو ؟ انبعث احدهم قائلا فى صوت من يضيق بالإجابة على تافه الأمور فى وقت لا يتفق مع هذه التفاهة : « إنه مريض : لقد ارسل إلينا وطنية تخبرنا بذلك منذ ايام . . . » .

الم اقل لك إنه كان قد أعد الخطة فأحكم إعدادها ؟ لـــم يغفل من صغيرة منها منذ ذلك اليوم الذى امل فيه ان يستولى على سلاح .

انتظر كمال بعد هذه الحادثة الثالثة يومين آخرين لم يخرج من بيته ابدا . وهو حتى فى ايام الجرائم الثلاث كان لا يترك بيته ، إلا ريثما يتم جريمته ثم يعود .

وقد رأى انه يكفى للمرض خمسة ايام ، ورأى انه لابد له ان يرى الدفراوى والنمرود ونورا والزهار ، فإن له معهم شانا فى ليلتهم تلك . أى شأن ! .

مشى كمال يفكر فيما كان من أمره وفيما سيكون منه ، ولكن هينمة اقل ارتفاعا من ضجة الكلام واعلى خفوتا من الهمس قطعت عليه تفكيره .

نظر كمال إلى مبعث تلك الهينمة فرأى موكبا صغيرا يسعى فى الطريق مارا بين أكوام السماد ، وما لبث أن تبينه على ضوء

نار بلغها فاتضح له من درية تسير إلى جانب فاطمة ، وقد تقدمهما خفير نظامى يشرع البندقية إلى الفضاء . ووقف كمال دون أن يعرف سببا لوقوفه هذا ، أو لعله وقف دون أن يعسلن إلى نفسه السبب الحقيقى الذى من أجله وقف . واقترب الموكب الثلاثى الصغير .

ـــ مساء الخير يا ستى درية .

ـــ مساء الخير يا كمال .

ومشى كمال خلف الركب دون أن تعلن نفسه إلى نفسه السبب الحقيقى الذى من أجله مشى .

ـــ خير يا ستى درية ، الدنيا ليل ولا قمر ، وأوشك الجو أن يكون باردا ، والحالة خطرة فى هذه الأيام . فإلى أين ؟

ـــ والله سأذهب إلى عمك الشيخ عبد الودود لأطمئن عليه ، ثم إلى عبد الرحمن افندى السلامى ، ثم إلى عبد المنعم الخفير فقد سمعت اليوم أن حالته خطرة .

ـــ أطال الله عمرك يا ستى درية .. وتعودين بعد ذلك إلى البيت ؟

فترددت قليلا قبل أن تجيب :

ـــ نعم .

ولما رأت فاطمة تردد درية وإلحاح كمال ، تدخلت فى الأمر حازمة .

ـــ الله .. ماذا جرى يا ولد .. ؟ أهى محاكمة .. ؟ امش .. اذهب إلى حالك .. مالك أنت وما لخروجنا أو عودتنا .. ؟ جاءتك داهية .. امش !!

وقال كمال وهو يبتسم ابتسامة العظيم الذى يتغاضى عن تطاول الأطفال جهلوا قدره :

ـ حاضر .. حاضر يا ست فاطمة .. انا ذاهب .. ولكن فقط قولى لحضرة العمدة الا يأمن على الست درية بخفير واحد .. اطلبى إليه أن يرسل معها خفيرين أو ثلاثة ، فقد ثبت ان الخفير الواحد عندما يلتقى باللص يصبح عادة أضعف من الشخص المسروق .. أليس كذلك يا عم فتحى ؟

وانتفض الخفير فتحى غاضبا ، والتفت إلى كمال الذى كان قد ولى الركب ظهره عائدا إلى سبيله الأول .. قال فتحى :

ـ امش يلعن ابوك ابن كلب .. الم يبق إلا أنت يا ابن الضائعة لتتهكم على اسيادك .. يا تائه يا ابن الكلب يا طبال .. مصائب !!

بلغ كمال بيت النمرود ولم يلتفت إلى النيران التى تحلق بها القوم ، ولم يعنه ذلك البصيص الذى يحاول عاجزا ان يغزو الظلام ، فما كان يهتم بالضياء ابدا . كان يعرف طريقه بلا حاجة إلى هداية .. بلغ كمال مجلس الإخوان فلاقوه بترحيب يخلط بكثير من التواضع ، فقد تشوقوا إلى صيحاته المنافقة وإلى مجلسه منهم على الأرض حين هم على الأريكة يعد لهم الجوزة ، فيدخنونها دون أن يعانوا من إعدادها . تشوقوا إلى هذا جميعه ، واحبوا وعلى راسهم الدفراوى أن يظهروا له انهم متواضعون يحنون على من كان مثله ، فرحبوا به . ولكنهم لم ينسوا مكانه منهم ومكانهم منه ، فكان ترحيبهم غارقا فى التواضع

الذى أحبوا ان ياخذوا به انفسهم فى لحظتهم تلك . قال الدفراوى :

ـــ والله لك مكان يا أبا كمال .

وقال الزهار :

ـــ يدى تحرقت من الفحم يا ابن الكلب .. اقعد .. اقعد ورص .

وقعد كمال ، وراح جبابرة الليل يصلون من حديثهم ما قطعه دخول كمال ، قال منصور :

ـــ مصيبة والله العظيم يا أولاد . قرية فيها منصور الدفراوى يعتدى على ثلاثة منها على ثلاث ليال متتالية ، ماذا حصل فى الدنيا ؟

ويقول الكحلة :

ـــ والمصيبة الأدهى اننا ـــ ونحن أولاد الليل ـــ لا نعرف من الفاعل .

ويقول النمرود :

ـــ أتظنه سيقفز من السماء ؟ لابد اننا نعرفه .

ويقول الكحلة :

ـــ طبعا لابد اننا نعرفه ، وهل فى المديرية رجل لا نعرفه ؟

ويقول منصور :

ـــ لا .. وخاصة انه يبدو عليه انه ثابت وذكى ، وولد يلعب بالبيضة والحجر ، وفاهم الشغل .

ويقول الزهار :

ـــ والله يا منصور لابد لنا أن نبحث عن هذا الرجل حتى نعرفه ، فإنه سيكون ذا نفع كبير لنا .

وبقول منصور :

ـــ والله يا ابنى لو انضم إلينا لاستطعنا أن نقيم الناحية على رجل .

كانت الجوزة تدور بيد كمال وهو صامت لا ينطق بكلمة ، وما عوده القوم صموتا ، ولكن جميعهم كان مشغولا بأنباء هذه الحوادث لا يلتفت أحد منهم من أمر كمال إلا إلى هذه النغابة التى يمدها إليه فيشهق منها بضعة أنفاس ، ثم يميل بها إلى الذى يليه .

قال الكحلة :

ـــ أى والله يا بنى ، وخاصة إذا علمته أنت كيف يعمل سلاحه وكيف يضرب به ، وأنت الرجل ذو اليد القاعدة التى لا تخيب أبدا .

وبدا كمال يتكلم لأول مرة :

ـــ اسمعوا .

فقال النمرود :

ـــ سمعت الرعد يا كمال .. قل ماذا تريد ؟

فقال كمال :

ـــ اسمعوا ولا تهذروا . فقد عشت معكم السنين الطوال لم أر منكم إلا الهذر .. أنت يا منصور تقتل ، تقتل النفس التى حرم الله قتلها .. وتنال من أجل هذا ثمنا بخسا . لا بأس أن تقتل ولكن لابد أن تنال الثمن وتحسن تقديره .. أعرفه

ماذا ستقول .. انت ترى ان زملاءك ممن يستأجرون للقتل يقبضون نفس المبلغ الذى تقبضه انت ، ولكن من قال إن القاتل ذا اليد القاعدة لا ينفع إلا فى الاستئجار للقتل ؟ إنك تستطيع أن تثير الرعب فى الناحية فتنال ما تريد . وانت يا نمرود ، ماذا ؟ الا تستطيع ان تعمل فى غير المخدرات ؟ الا تلف بالبلاد وتعرف الصفقات ، ومن يملك كثيرا فيعطى من عنده القليل . لماذا لا تستفيد من دورانك ومعلوماتك فيستفيد منها الجميع ؟ وانت يا زهار منذ تركت العسكرية لا تحسن شيئا ، إلا ان تميل بالطاقية وتفتح الزر الأعلى من الجلباب ، فإن استأجرك احدهم لتحرس شيئا او لتقف خلف انفسار فبها وإلا فإنك لا تسرق إلا توافه الأشياء . وجعلت اكثر اعتمادك على استخدام النمرود لك فى تصريف بضائعه ، فعشت على نفقته فرحا لانك تجد ما تاكل ، وهو فرح لانه اصبح ذا مستخدمين ومساعدين . وانت ذكى لانك لا تسرق الرجل الذى استأجرك للحراسة وإن كنت تسرق جاره . وذكاؤك يا مسكين لا يعود عليك بغير النفع الضئيل . وانت جرىء لانك تسرق فى وضح النهار وتعتمد على الضوء فى سرقاتك ، وتقول لمن يتهمك : إنك لا يمكن ان تسرق فى الضوء . جراة وذكاء ولكن بلا فائدة ، ولو انك استعملت جراتك وذكاءك فى السرقات الكبرى لكنت ذا نفع كبير . وانت يا نور دخلت السجن وخرجت ثم لم تنتفع من دخولك وخروجك ، وقد كنت فى المديرية تعرف الكثيرين ، والعمدة منذ ذلك الحين يكن لك بعض الاحترام ، ولكنك تكتفى بالجلوس معنا معتمدا بعد ذلك على فدان وعشرة

قراريط لا تجنى منها غير يسير مال . ثم انت معتمد بعد ذلك على الجلوس معنا ، تروى عن احداث الليل التى تدعى انك شهدتها وما شهدت منها شيئا . خسارة .. كان يمكن ان تشهد لو انك عملت ولم تتكلم ، وسعيت ولم تتشدق .

ثم سكت كمال فإذا القوم وقد فغرت أفواههم من الدهش ، وحملقت عيونهم فى كمال يسمعون منه عجيبة لم ينتظروا ان يسمعوها يوما .. وتزداد العجيبة غرابة ان تصدر عن كمال الذى لم يروا لسانه يتحرك فى فمه إلا بمدحهم والمبالغة فى هذا المديح .

وقطع منصور هذا الصمت فى دهشة لا تزايله :

ـــ يا ابن الكلب .. ومن أين تعلمت هذا ؟

ـــ تعلمته من الرجل الذى اخذ من الشيخ عبد الودود سبعمائة وخمسة وعشرين جنيها وثلاثة وخمسين قرشا ، ومن عبد الرحمن السلامى مائتى جنيه وجنيهين وأربعة وسبعين قرشا ، ومن الخواجة استاورو خمسين جنيها وخمسة وخمسين قرشا .

فقال منصور فى دهشة اقرب إلى الفزع :

ـــ ولد .. من اين عرفت حقيقة هذه المبالغ ؟

ـــ الم اقل لك إننى كنت مع من اخذها .

ـــ ومن هو ؟

ـــ لا اقول لكم حتى ابلغكم رسالته كلها .

ـــ وما هى ؟

ـــ لا أقولها لكم حتى تقسموا على المصحف .

ـــ نقسم .

ـــ على ماذا ؟

ـــ نقسم على ما يريد .

ـــ إنه يريدكم أن تقسموا على أن تكونوا معه رجلا واحدا تأتمرون بأمره ، لا يرتفع صوت أمام صوته ، وقوله أمر ، وإشارته تنفيذ ، ماذا تقولون ؟

وتراجع الدفراوى ، ثم نظر إلى إخوانه متسائلا فرد إليه إخوانه نظرته بنظرات أنكر حيرة ، وإن كانت تحمل أيضا رجاء إليه أن يقبل ما يعرض عليه . ولكن الدفراوى يسأل كمالا :

ـــ وماذا نفيد من هذا ؟

ـــ عزا لا تحلمون بمثله .. ومالا لا تبلغ إليه أوهامكم مهما يشتط بكم الوهم ، فأنت يا زهار ستتزوج سعدية أم الخير التى طالما تمنيت زواجها .. فلن يكون زواجها من صالح أو سعى أحمد أبى خليل حائلا بينك وبين الزواج منها ، ولن تحتاج بعد اليوم إلى أن تكون أجيرا أو عاملا بسيطا فى توزيع تجارة النمرود . وأنت يا دفراوى لن تقتل بعد اليوم إلا فى سبيل الجماعة التى تعمل معها ، وستحميك من كل شىء . وأنت يا نمرود ستتسع تجارتك فتصبح كبير تجار مصر كلها . وأنت يا نور لن تحتاج بعد اليوم لزيع فدانك الحقير ؛ سيجرى المال فى يدك فلا تدرى أين تنفقه .. ماذا تقولون ؟

وينظر الدفراوى ثانية إلى القوم ويسألهم :

ـــ ماذا تقولون يا رجال ؟

وصمت الرجال بأفواههم وقالت عيونهم : « نقبل » . ولكن الزهار قال :

ـــ الأمر إليك ، فأنت كبيرنا .

وعاد منصور يسأل كمالا :

ـــ ومن هو صاحبك ؟

ـــ لا أذكر اسمه حتى نقبلوا .

ـــ أخشى أن يكون خائنا فيضيعنا .

ويقول كمال فى ابتسامة هازئة :

ـــ أمن أخذ هذه الأموال خائب ؟ . ماذا جمعت أنت فى حياتك كلها ؟؟ ؟ ما أظنك بلغت ما أخذه هو فى ليلة ؟ !

ـــ أجننت يا ولد ؟ لقد لعبت بالفلوس لعبا . إنى أكسب القرش من ...

ويقاطعه كمال ساخرا :

ـــ من فم الأسد .. سمعت هذا الكلام كثيرا .. كم فى جيبك الآن .. ؟ كم فى منزلك ؟

ويبهت منصور ويتلجلج ، ثم يقول لمن حوله محاولا أن يغطى خزيه :

ـــ ماذا تقولون يا رجال ؟

ويقول الكحلة :

ـــ ما تقول أنت ؟

ويقول منصور :

ـــ وماذا لو قبلنا ؟ فإن لم تعجبنا الحال قتلنا الرئيس .

ويقول كمال :

ـــ على مهلك ، فإنك ستقسم على المصحف أن تخلص له كل الإخلاص .

ـــ آه .. صحيح !

ـــ ثم إنه ليس ساذجا ، وهو يتغدى بك قبل أن تتعشى به ، وهو يعرف أسراركم جميعا لا يغيب عنه سر واحد منها ، ورقة صغيرة إلى المأمور تعدم أنت ويحبس إخوان الصفا .

ويقول منصور لمن حوله فى تردد مذعور :

ـــ هيه يا رجال ؟

ويقول النمرود :

ـــ نقبل يا منصور .. وإذا لم يعجبنا الحال نفضها .

ويقول منصور كمن جمع أمره أخيرا :

ـــ الأمر لله نقبل .. من صاحبك ؟

ـــ القسم .

ويقوم النمرود إلى داخل المنزل فيحضر المصحف ، ويسأل منصور :

ـــ نقسم أن نطيع من يا كمال ؟

ـــ تقسمون أن تطيعوا الذى أخذ أموال الشيخ عبد الودود وعبد الرحمن السلامى والخواجة ، وأن تخلصوا له والا تخرجوا عليه مهما تكن الأحوال .

وأقسم الجماعة على المصحف القسم الذى أراده لهم كمال ، وما إن أتموه حتى التفت منصور إلى كمال يسأل فى لهفة :

ـــ من هو إذن ؟

ولكن كمالا لا يريح ثائره بل هو يقول :

— اسمعوا أولا ما ينوى أن يفعله لكم ، انه سيشترى لكل منكم حصانا وبندقية ومسدسا ، إلا انه يقول . . .

— هيه . . ماذا يقول ؟

— يقول إن فى هذه البلدة فقراء كثيرين ، وهو يريد أن يفرض إتاوة على الأغنياء ويعطى منها للفقراء .

— وماذا سنفيد نحن ؟

— تفيدون أنكم ستطبقون الأفواه حواليكم فلا ننطق إلا بحمدكم ، وتقومون بأعمالكم فى الظهر الأحمر فلا يشهد عليكم أحد . . ثم إنكم لن تعطوا هؤلاء الفقراء إلا ربع أو خمس ما تنالون .

ويقول النمرود :

— وماذا سننال ؟

— سننالون جنيها عن كل قنطار قطن يخرج من هذه البلدة ، وسننالون خمسين قرشا عن كل إردب حب تنتجه الأرض ، وسننالون خمسة جنيهات عن كل فدان يباع ، تنالونها من البائع لأنه أصبح وفى يده مال ، وتنالونها من المشترى لأنه ملكَ ما يشترى به . وسننالون جنيها فى العام عن كل جاموسة أو بقرة لتحفظوها لصاحبها فلا تسرق منه ، وهذا جميعه غير ما ستحصلون عليه من الماشية من البلدان الأخرى فتبيعونها أو تردونها بالحلوان ، غير الاستفادة من الطرق الخالية التى لا يحرسها أحد . الا يكفيكم من هذا جميعه أربعة أخماسه ، وتهبون للفقراء خمسه ، فيظلّ القوم حولكم صامتين لا يكشف أحد من أمركم شيئا ؟

وقال منصور وقد جف حلقه ، وبلغت به الدهشة اقصاها :

ـــ يا ابن الكالب .. من صاحبك .. ؟ من صاحبك .. ؟ نشهد انه رجل وابن رجل .. واشهد انه سيدى وتاج راسى .. من هو ؟

ورفع كمال الجلباب عن حزام الشيخ عبد الودود ، وفسك اربطته فى تؤدة ثم رماه امامهم فارغا فذهل القوم ، ولكن كمـــالا لم يبال ذهولهم بل هو يضـــع يده فى جيب صداره فيخـــرج حافظة الخواجة يلقيها امامهم ثم يضع يده فى جيب جلبـــابه فيخرج حافظة عبد الرحمن فيلقيهـــا امامهـــم ، كل هذا فى بطء شديد ، بينما راح الرجال الاربعة يقلبون الاشياء ويتعرفون عليها واحدة واحدة .. فهذه اوراق عبد الرحمن ، وهذه أوراق مكتوبة بغير اللغة العربية فهى للخواجة ، وفى ذهول مخـــدر لا يكاد يبين يتصايح اربعتهم صيحات تهم بالارتفاع ، فيمسك بها الذهول والفزع والحشيش .

ـــ من ؟ .. انت ؟

ويقول كمال فى صوت هادىء حازم لم يسمعه القوم من قبل صادرا عن كمال ، ولم يسمعه القوم من بعد صادرا إلا عن كمال :

ـــ نعم .. انا .

— ١٠ —

لم يكن تردد درية حين سألها كمال إن كانت ستذهب إلى البيت بعد زيارتها وليد دهشة من السؤال ، وإنما كان وليد حذر فى الإجابة ، فقد كانت تضمر فى نفسها زيارة أخرى لم تطلع عليها غير فاطمة ، فقد كانت درية تنوى أن تزور بيت الشيخ حسن لترى وقع رفض ابيها .

وفوجىء فتحى بدرية وهى تطلب إليه أن يتقدم إلى بيت الشيخ حسن الذى كانت تعرفه كل المعرفة ، والذى طالما قصدت إليه فى ستار من الليل ، تجلس إلى الست أم صلاح . وقد كانت درية تظهر الحب كل الحب للست أم صلاح ، وجعلت من هذا الحب المصطنع ستارا اسدلته على حبها الحقيقى ، فكانت ترحب بأم صلاح كلما ألمت بهم فى زيارة ، وكانت تظهر لامها شوقها إلى أم صلاح كلما تأخرت هذه عن الزيارة .

وهكذا لم تر بأسا أن تزورها الليلة ، فما كان مفروضا أن تعرف بما كان بين الرجلين ، وما كان مفروضا أن تقطع أم صلاح فلا تزورها لمجرد أن اباها رفض ابنها . ولكنها مع كل هذا التبرير الذى اصطنعته لنفسها أوعزت لفاطمة أن تكتم خبر هذه الزيارة ، وأن تطلب إلى فتحى أيضا أن يكتمها .

كانت درية تعلم أن فخرى لم يقم فى القرية بعدما كان من نبيها ، وانه رحل إلى القاهرة فى الباكر من الصباح التالى ، فهو لم يسمع من أمر الجرائم التى تمت شيئا ، وهكذا كانت تعلم انها فى زيارتها تلك لن تلقاه ، ولكنها أرادت أن تقوم بهذه الزيارة عسى الأمل الا ينقطع عند آل الشيخ حسن ، وعساهم يكررون الطلب إذا ما سنحت سانحة ليتكرر هذا الطلب .

ـــ مساء الخير يا خالتى أم صلاح .

ـــ اهلا .. مساء الخير يا حبيبتى ، خطوة عزيزة ، مرحبـــا بالحبيبة بنت الحبيب .

ـــ اكثر الله خيرك يا خالتى أم صلاح ، كنت فى البلدة ملم أرض أن أمر ببيتك دون ان ازورك .

ـــ مرحبا يا حبيبتى ، شرفت !! . يا فاطمة .

ـــ نعم يا ستى أم صلاح ؟

ـــ عندك البن فى الطاق ، اعملى لنا فنجان قهوة الله يسترك ، انت عارفة مكان الحاجات .

ـــ من عينى يا ست أم صلاح .

وتقوم فاطمة إلى القهوة ، وتعود أم صلاح إلى ضيفتها :

ـــ اظنك كنت تزورين المساكين الذى اعتـــدى عليهم قاطع الطريق .

ـــ إى والله يا خالتى مساكين ، حالهم يبكى .

ـــ لا أعلم والله اين كانت هذه المصائب مختبئة لنا يا بنتى ؟

ـــ إى والله يا خالتى .

ـــ والمصيبة ان المصائب كلها جاءت متلاحقة ، عمك الشيخ

حسن مريض .. منذ كان عند ابيك .. خرج مريضا من عندكم ولم يخرج من البيت حتى الآن .

ـــ الف سلامة له .

ـــ والله زعل من ابيك جدا يا درية .

ـــ ماله يا خالتى ؟ كفى الله الشر .

ـــ والله يا بنتى لا اعرف .. حمى ـــ بعيد عنك ـــ أم برد ... لا ادرى .. لا يكلم احدا ولا ياكل شيئا منذ جاء من عندكم ، وزاد عليه المرض عندما سافر فخرى .

ـــ كل شيء يهون يا خالتى إن شاء الله .

ـــ عرف بالحوادث التى جرت ، وحاول أن يقوم فلم يستطع القيام ، حتى لقد جاء الخواجة استاورو قبل ان ينسطى عليه فلم يستطع أن يلقاه ، وقال إنه سيعود إلينا فى اليوم التالى ، ولكن اللص هاجمه فى الطريق فلم يعد بعدها إلى البلد ابدا .

ـــ وبعد يا خالتى ؟

ـــ لا بعد ولا قبل .. هى مصيبة وحطت علينا ، والأمر لله .. حتى الذين باعوا قطنهم للخواجة استاورو وقبضوا منه عرابين قطنهم لم يأتهم أحد ليتسلم القطن ، وقد سمعوا ان الخواجة لن يعود إلى بلدة السلام مرة اخرى ، وقد قصده أحمد ابو خليل يطلب إليه أن يأتى ليتسلم قطنه فقال له : إنه لن يعود إلى البلدة ابدا ، وأنه لا يريد العرابين التى دفعها .

ـــ وبعد يا خالتى ؟

ـــ القطن عندنا كالقتيل لا يجد من يشتريه ، وقد ذهب أخوك

صلاح اليوم إلى المديرية ليبحث عمن يشتريه ، ولم يعد حتى الآن .

— إن شاء الله يجد المشترى يا خالتى .

— والله يا بنتى لا اظن . التجار خائفون من القسرية ، والتجارة يا بنتى امان . النهاية .. كيف حالك انت ؟

— الحمد لله يا خالتى .

وعادت فاطمة بالقهوة ، فراح ثلاثتهن يشربنها على حديث فاطمة التى انتهزت فرصة الصمت من السيدتين ، فقالت :

— ألم ترى وطنية اليوم يا ستى أم صلاح ؟

— لا والله يا بنتى ، لها ايام لم تات .

— هناك .. إنها اليوم فى أحسن حال — على الاقل فى شكلها — إلا انها مع كل ما هى فيه من نعيم غاضبة ساخطة كانما مات لها عزيز .

— خير ؟ ما الذى جد عليها ؟

— جد عليها ؟ جلباب إن رايته قلت فستانا .. احمر حلو ، وعصبت راسها بمنديل جديد ، والعجيب ان شعرها خاضع للمنديل الجديد ولا ادرى بماذا اخضعته ، لابد انها اشترت له زيتا غاليا .

فقالت أم صلاح :

— عجيبة .. الا تكون هى فاطمة الطريق ونحن لا ندرى

وضحكت النسوة الثلاث ضحكا عاليا ، قطعه عليهم سعال الشيخ حسن صادرا من مقعده باعلى المنزل ينادى زوجته :

To: www.al-mostafa.com

ـــ يا فضيلة .

ـــ نعم ياشيخ حسن .

ـــ فنجان قهوة وحياة والدك .

ـــ حالا يا سى الشيخ .

وقبل ان تستأذن فاطمة لعمل القهوة ، استأذنت درية لتنصرف قالت ام صلاح :

ـــ ولم ؟ .. اقعدى قليلا .. سأعود إليك حالا .

ـــ لا ، تأخر بنا الوقت وأخشى ان يدخل ابى فلا يجدنى ، وهى فى هذه الايام غاضب ضيق النفس لا يطيق الدنيا .. مسيت بالخير يا خالتى .

ـــ مسيت بالخير يا حبيبتى .. بلغى سلامى للست الحاجة ، وإن شاء الله اجىء إليها عندما يغادر عمك الشيخ حسن الفراش .

ـــ سأبلغها يا خالتى .

وحيت فاطمة أم صلاح وانصرفت تتبع سيدتها إلى الخارج ، حيث وجدتا فتحى واقفا ينتظر خروجهما . وسار الركب عائدا إلى بيت العمدة ، مارا بالنسيران والانوار الخافتة والرجال المتحلقين ، ولكن درية لم تحفل شيئا مما مرت به ، فقد هاجت لها الزيارة ذكريات قديمة وجديدة لازمتها حتى اسلمتها إلى امها المتسائلة عن التأخير ، فراحت درية تقص عليها ما لقيته فى البيوت المنكوبة ، وراحت الام تسمع فى عجب حزين .

وحين خلت درية بحجرتها وأعادت ما كان من ام صلاح وترحيبها ، أدركت أن ام فخرى لم تقطع الأمل ، فهى تعرف عن الست فضيلة ذكاء متوقدا ، وهى تعرف انها ما كانت

لترحب بها هذا الترحيب إلا لأنها تضمر فى دخيلة نفسها أن تعود إلى المحاولة ، وقد تمكن هـذا التفكير من درية حين تذكرت وعد أم صلاح بزيارة أمها . وهى تدرى أن أم صلاح ما كانت لتزور الأم إن كانت قد قطعت الأمل فى هذا الزواج الذى تصبو إليه نفوس كثيرة .. وهى تدرى أن أم صلاح ما طلبت إليها أن تبلغ والدتها بهذه الزيارة إلا لتشير لدرية نفسها من طرف خفى أنها غير غاضبة ، وأنها ما زالت تأمل أن يتم هذا الزواج ، فما كانت أم صلاح لتغبى أن زيارة درية إنما تمت فى خفاء عن والديها .

وبهذه الآمال التى أحيتها درية فى نفسها استسلمت إلى نوم منضور ، وأغمضت عينها على أحلام وردية لا شأن لهـا ولا صلة بهذا السواد الحالك الذى يحيط بقرية السلام ، وبعمدة قرية السلام .

— ١١ —

فرغ العمدة من صلاة العصر وخرج إلى مجلسه من شرفة الدوار ينتظر رفاقه ، وإن كان فى هذه الأيام لا يطيق أن يرى أحدا ، فالمركز يطلبه دائما وهو حائر لا يدرى ماذا يفعل ، والمأمور لم تجد معه الهدايا والتزلف ، فإن الجرائم التى ارتكبت كانت أكبر من كل الهدايا مهما تعظم ، ومن أى تزلف مهما يبلغ . حتى لقد هدده المأمور بالوقف إن هو لم يقبض على الفاعل ، وطلب إليه أن يكون على صلة دائمة به ليبلغه كل إشاعة تروج ، فلعل لإشاعة منها امتدادا للحقيقة .

ولم يطل الانتظار المنفرد بالعمدة فقد قدم إليه نور الكحلة وما كان يتوقعه ، ولكنه فرح بلقياه فهو يعرف عنه أنه خريج سجون ويعرف المجرمين ، وداخل العمدة أمل أن يجد عند نور ما يضىء له بصيصا مهما يكن خافتا يهديه فى هذا الظلام الحالك ، وقال فى نفسه إن لم يرشدنى إلى الفاعل فلعله يرشدنى إلى اسم أقدمه إلى المأمور فيلهيه عنى بعض الحين ، وهكذا وجد نور نفسه فجأة محل ترحيب لم يكن ينتظره .

— أهلا وسهلا . . كيف حالك يا نور . أين أنت يا أخى ؟ . . من زمن طويل لم أرك .

ـــ تحت أمرك يا حضرة العمدة .. تشوقت إليك والله فقلت أزورك .

ـــ والله جئت في وقتك يا نور .

ـــ تحت أمرك يا حضرة العمدة .

ـــ يا أخي المصائب تتلاحق على البلد ولا أجد أحدا منكم يساعدني .. لا لم أكن أنتظر هذا منكم يا نور .

ـــ نحن خدامك يا حضرة العمدة .. ماذا نفعل .. ؟ أنت تعرف طبعا أننا لا شأن لنا بهذه الأعمال .

ـــ سبحان الله يا أخي ! وهل قلت إن لكم شأنا ؟ إنني أعرف خطواتكم جميعا ، وطالما سكت عما يفعله منصور والنمرود والولد الزهار أيضا .. وكنت أقول ما داموا يبتعدون عن البلدة فليفعلوا ما شاءوا .

ـــ والله يا حضرة العمدة إن هذه الجرائم لم ندر بها إلا بعد وقوعها .

ـــ أعرف ، ولكني كنت انتظر منكم أن تبحثوا معي عن الفاعل وتدلوني إليه . أيرضيكم أن يصبح عمدة بلدكم ضحكة في أفواه العمد ؟ !

ـــ لا قدر الله يا حضرة العمدة .

ـــ لقد قدر فعلا ، وأنا من اسكت عنكم ، وأعرف أن النمرود يبيع الحشيش ويساعده في ذلك الزهار ولم أتكلم ، بينما استطيع أن أبلغ عنهما ، وأعرف أن منصورا قتل الفرماوي ، وأعرف كل من قتلهم منصور ومع ذلك لم أتكلم .

ـــ إنهم يا حضرة العمدة يدعون لك دائما ويعرفون أنك تكرمهم ، وهم فى انتظار الإشارة منك .

ـــ ألم تسمعوا شيئا عن الفاعل فى هذه الجرائم ؟

ـــ يا حضرة العمدة هذه المصيبة جاءت من الخارج ، رجال لطيف بك غاضبون وأصبحوا يخشونه بعد مقتل الفرماوى ، وهو يعرف تخوفهم هذا فأصبح لا يعطيهم ما كان يعطيهم ؛ فأظن أن واحدا منهم أو بعضهم خرج إلى الطرقات المظلمة ليعوض ما أكله عليه لطيف بك .

ـــ يا أخى قل كلاما غير هذا .. ومن أين يعرفون بخروج الشيخ عبد الودود ، وبمجىء الخواجة استاورو إلى البلدة ، وبسفر السلامى وعودته ؟ .. لا يا عم ، شرع الله عند غيرك .. إنه واحد من أهل السلام .

ـــ والله يا حضرة العمدة أنت أدرى ولكن هذا ما بلغنا ، ورجال لطيف لا تخفى عليهم خافية ، وأولاد الحرام كثير .

ـــ جائز .. ولكن لا أظن .. على أى حال يا نور لك عندى جائزة كبيرة إن أنت عرفت الفاعل وأرشدت إليه .

ـــ ربنا معنا يا حضرة العمدة .

وقبل أن يجيب العمدة صعد إلى الشرفة الشيخ رضوان والحاج على ، ورحب العمدة بالرجلين ، وبدأ الحاج على الحديث :

ـــ أسمعت يا حضرة العمدة الإشاعة التى ملأت البلد اليوم ؟

ـــ هيه .

ـــ يقولون إن رجال ...

ـــ لطيفة بك ؟

ـــ نعم ، أبلغك هذا ؟

ـــ والله نور هو الذى قال لى الآن .

ـــ الإشاعة فى البلد كلها يا حضرة العمدة .

ـــ كلام فارغ .. المجرم من البلد .. ولكن من هو ، لا أعرف .. مجرم جديد لا نعرفه .

وقال الشيخ رضوان :

ـــ سنريحك من حديث الجرائم قليلا بحديث فارغ ؟

ـــ خير ؟

ـــ لا والله إنه ليس خيرا ولكنه أهون من هذه الجرائم .. إنه تسلية على كل حال .

ـــ ماذا ؟

ـــ سعدية أم الخير ..

ـــ وصالح .. ثانية .

ـــ ياحضرة العمدة العيشة لا تمكن بينهما .. لا تمكن أبدا .

ـــ لماذا ؟

فقال الحاج على :

ـــ غضبت منه ثانية .

ـــ قل عاشرة .

فضحك الجميع من نكتة العمدة ، وتابع الحاج على حديثه :

ـــ وذهبت إلى دارها ، وأظنها ستجىء إليك الآن .

ـــ عظيم .. لم يبق أمامنا إلا سعدية وصالح .. نقيم لهما عمودية ثانية خاصة بهما .. عظيم عظيم !!

وقبل ان يكمل العمدة سخطه يصعد صالح إلى الشرفة ..

ـــ السلام عليكم يا حضرة العمدة .

ويجد العمدة مصدر سخطه امامه ، فيقول فى سخرية مريرة وفى ضيق بلغ مداه :

ـــ عليكم السلام يا سيدى ورحمة الله وبركاته .. نعم !

ـــ البنت سعدية .

ـــ مالها ؟

ـــ تركتنى وذهبت .

ـــ فى ستين داهية .. اسمع يا بنى .. اقترب هنا . خذ ..

ويضع العمدة يده فى جيب صداره ويخرج حافظته ويخرج منها جنيهين ، ويكمل حديثه :

ـــ خذ يا صالح .. جنيهين ثمن الفراخ وانت حر مع زوجتك . تطلقها تطلقها ، تقيم معك تتركك .. المهم ان تتركنى انت يا بنى . ارحمنى يا اخى !!

ـــ يا حضرة العمدة وهل طلبت منك ثمن الفراخ ؟

ـــ من غير طلب يا بنى .. يا بنى .. ابعد عنى .. اعمل لى هذا المعروف يا بنى .

ـــ وإلى من اذهب يا حضرة العمدة .. إنها ..

وقبل ان يكمل صالح حديثه تصعد سعدية إلى الشرفة وترتمى على قدمى العمدة .

ـــ خلصنى يا حضرةالعمدة ، انا خادمتك ، ليس لى فى الدنيا غيرك يا حضرة العمدة .. انت الذى رميتنى وامرتنى ان

أصالحه .. أرجوك يا حضرة العمدة .. ابوس رجلك يا حضرة العمدة .

ونتر العمدة قدميه مبتعدا بهما عن سعدية ، وهو يقول :

ـــ عظيم .. تمت .. ماذا افعل الآن يا سى صالح !

فقال الحاج على كمن يحاول تهدئة الحال :

ـــ قل لى يا صالح .. أترى يا ابنى العيشة بينكما ممكنة ؟

ـــ وماذا أفعل يا عم الحاجعلى ؟

ـــ طلقها يا بنى .

ويقول الشيخ رضوان :

ـــ نعم .. طلقها يا اخى .

وتترقرق العبرات فى عينى صالح فتمسك بها رجولة ، ويهم بأن يقول « أحبهـــا » فترد رجولته الكلمة عن لسانه وتطلقه بقول :

ـــ تكلفت فى زواجها فوق ما أطيق ، ولا أملك ما اتزوج به ثانية يا عم الحاجعلى .

ويقول الحاج على فى صوت يكاد يكون ساخرا :

ـــ يا اخى اعتبرها تجارة بارت .

ويقول صالح فى صوت مختنق بالعبرات ، والمشاعر المختلفة بين الحب والكره ، والإقبال والنفور ، والعزة والذلة ، ازدحمت جميعها وابت رجولته ان تبين عنها .

ـــ ومن أين لى بمتأخر الصداق يا عم الحاجعلى ؟

وتصيح سعدية :

ـــ لا أريده .. ابراتك من الحق والمستحق ، ولا اريد منك شيئا .. فقط .. طلقنى .

ـــ أهكذا يا سعدية .. وتهون العشرة ؟

ـــ تهون .

ـــ الأمر لله .. عندما يسترد الشيخ عبد الودود صحته أطلقك .

وينبرى الشيخ رضوان قائلا :

ـــ وما الحاجة إلى الشيخ عبد الودود . ؟ قل لها : طلقتكِ ثلاثا طلاقا بائنا لا رجعة فيه تصبح طالقا ، وأوراق الشيخ عبد الودود تسجل الطلاق فيما بعد .

ويقول صالح فى تماسك كتماسك الزجاج المتحطم اوشك ان ينهار :

ـــ أهذا ما تريدين يا سعدية ؟

وتقول سعدية فى جمود مشيحة بوجهها عنه :

ـــ نعم .

ـــ فأنت طالق يا سعدية ثلاثا ، طلاقا بائنا لا رجعة فيه .

ويتنهد صالح تنهيدة عميقة وهو ينصرف عن مجلس العمدة قائلا :

ـــ حسبى الله ونعم الوكيل .. حسبى الله ونعم الوكيل .

وتنفجر سعدية باكية بكاء عالى النشيج ، وتنصرف عن العمدة لا يدرى القوم إن كانت قد انصرفت راضية ام آلمة . وبصمت القوم فترة من الزمان ما أحسوا اطالت ام قصرت فكأنما

شاهدوا مصرع شباب امام اعينهم . ثم يقطع العمدة الصمت قائلا :

ـــ لعلنا نرتاح بعد ذلك من سعدية وصالح .

وما إن يتم العمدة جملته حتى يبدو الشيخ حسن متوكئا على ابنه صلاح وقد بدا اثر المرض على كل جارحة فيه ، وراح ينئن وهو يصعد درج السلم فى اناة هزيلة ، وما إن يراه العمدة حتى يقف فيقف الجميع .

ـــ مرحبا .. مرحبا .. اهلا اخى .. والله العشرة لا تهون ... لا تهون ابدا .

ويتقدم العمدة إلى السلم فياخذ مكان صلاح ، ويجعل من نفسه تكاة للشيخ حسن ، ويسير حتى يبلغ به مجلسا إلى جواره فيقعده ويقعد إلى جانبه ويعود القوم إلى اماكنهم ، ويتابع العمدة ترحيبه :

ـــ اهلا .. اهلا .. الفَ سلامة .. مالكَ .. ؟ ! والله ما سمعت انكَ مريض .

ويكون الشيخ حسن قد استجمع بعض قواه التى انهكها المشى وصعود السلم .

ـــ مريض منذ تركتكَ والله ، وما إن سمعت بالحوادث حتى همت اريد ان اجىء إليكَ فهدنى المرض .. وماذا ستفعلَ ... ؟

ـــ اهذا ما جاء بكَ ؟

ـــ طبعا .. وهل كنت تنتظر غير هذا ؟ ! .. البلد فى شدة وانت عمدتها .. إن لم نقف معكَ جميعا فعلى البلد السلام .

ـــ والله الشدائد حلوة .. ووالله اخ .

ـــ طبعا .. وهل يمنعنى عنك شيء وانت فى شـــدة ؟ ماذا ستفعل . ؟ ابنى صلاح امامك مره ان يفعل ما تريد ما دام المرض يقعدنى انا ، وقد ارسلت اليوم خطابا إلى منفرى ليجيء .. اجعل منهما خفراء ، اشتر لهما السلاح ، وعين لهما ما يفعلان .. اموالى تحت امرك .. صلاح باع القطن وسيأتى التاجر ليتسلمه غدا ، وقد دفع العربون مائة جنيه خذها ها هى ذى .. اشتر بها سلاحا للقرية ، وسأحضر لك بقية ثمن القطن بعد تسلمه .. ام ماذا ستفعل ؟

وترقرقت الدموع فى عينى العمدة وهو يرى صداقة عمره ماثلة امامه لم يمنعها الخصام ولم تردها المغاضبة ، فأقبل صديق العمر اخو الصبا والشباب والكهولة يقدم أولاده وماله ، ضعف جسمه فقدم ما يفلو عن جسمه ، قدم امتداد حياته ، قدم آماله فى المستقبل وما بعد الحياة ، قدم ولديه وما لديه من مال بل وما يرتقبه من مال ايضا . ويقول العمدة وعبراته على وجنتيه سائلة لا يردها ، فهى عبرات يشرفه ان تسيل .

ـــ بارك الله فيك يا حسن .. لا شيء .. لن افعل شيئا اكثر مما فعلت انت ، وماذا يمكن أن افعل اكثر مما فعلت انت ؟

ووجم القوم يعجبون من هذا الذى يرون .. وتضاءل كل منهم امام نفسه .

وامام هذه الشواهق العالية من الرجولة راح كل منهم يجد ضئيلا فيه شيء من الدناءة لما يقوم به الشيخ حسن ، لعله أن يعيد لنفسه سابق كبرها بعد ان احست مقدار بعدها عن الرجولة الحق . فالحاج على يقول فى نفسه : « إنه تظاهر .. إنه يعلم

أن العمدة لن يأخذ المائة جنيه ، ولن يجيش الجيوش ولن يشترى السلاح » . والشيخ رضوان يقول : « لابد انه يريد ان يقترض من العمدة مثل المائة الجنية مائة أخرى ليعطيها لابنه الذى يتعلم فى العاصمة » . أما نور فقد كان الأمر عنده أخطر من هذا وأجل .. لقد رأى عصابته مهددة بهذا الشيخ الخرف الذى يريد أن يقضى عليها وهى فى مهدها . وكان الأمر عنده خطيرا أيضا لانه علم ان قطن الشيخ حسن سيسلم غدا ، ولابد لهم ان يبدأوا عملهم به فيصيبوا بهذا هدفين برمية واحدة ، فهم أولا سيبدأون عملهم الاساسى فى فرض الإتاوات وسيبدأونه مع رجل من وجوه القرية ، وهم أيضا سيسكتون ذلك الصوت الذى يبدو عاليا . ويهم نور بالقيام ولكنه يرى أن يلبث قليلا حتى لا يفطن القوم إليه ويذكروا قيامه هذا عندما يتم ما يزمعه ، والظنين كثير الوساوس . يفيق الجمع من وجمتهم وقد أعد كل منهم جملة نفاق يلقى بها عند تقدمى الشيخ حسن ، ولكن العمدة يقول :

ـــ ابق عليك المائة الجنيه الآن .. فإن احتجت إليها طلبتها .

ويقول الشيخ حسن :

ـــ ماذا ؟ اتظننى جئت أعرض كلاما ؟

ـــ لا والصداقة التى بيننا ، لا والله الذى لا إله إلا هو ، ولكن عندى فضلة مال وما اظننى احتاج إلى شىء الآن ، فإن احتجت قلت .

ـــ ولماذا تقوم بالأمر وحدك ؟

ـــ لا والله لن اقوم به وحدى ، ولكـــنى لا استطيع شراء السلاح قبل أن استأذن المأمور وأطلب الترخيص ، حتى إذا

عزمت على الشراء طلبت منك ما تريد أن تدفع .. وعلى كل حال احفظ هذا المبلغ ولا تصرفه حتى نجمع رأينا على أمر .

ـــ وهو كذلك .. هذا المبلغ واضعافه تحت أمرك .. السلام عليكم .

ولكن رضوان يسارع قائلا :

ـــ والله إنك رجل .. ونعم الرجل .. بارك الله لك فى مالك واولادك يا شيخ .

وصيح الشيخ حسن غاضبا :

ـــ لا .. لا يا شيخ رضوان .. الواجب لا يجوز المديح عليه ، وأنى رجل أمر لا يحتاج إلى تقرير .. كلنا عند الشدة رجال يا رجل .

ويهم بالقيام ثانية فيسمع صوت نفير سيارة قادما من قريب ، فيمتقع وجه العمدة وهو يقول :

ـــ المأمور .

ويمكث الشيخ حسن فى مكانه لا يبارحه بعد أن يرى امتقاع العمدة ، وتتفتح أفواه الجالسين صمتا حتى تأتى السيارة ، فيتبين العمدة أنها ليست سيارة المأمور . ولكن الخوف لا يزايله إذ لعله أن يكون المأمور قادما فى سيارة أخرى ، وما تلبث السيارة أن تقف ويخرج منها رجل فى الحلقة الخامسة من عمره جامد الوجه غليظ الجسم كثير الزينة والحلى .. كلهم يعرفه وكلهم يخشاه وكلهم يداريه وكلهم يكرهه ، وينزل من خلفه ثلاثة رجال مدججون بالسلاح . ويصيح العمد وقد أصبح عند باب السيارة :

ـــ مرحبا لطيف بك .. اهلا وسهلا .. خطوة عزيزة .. شرفت يا سعادة البك .

ويتقدم القوم يصافحون لطينا ما عدا الشيخ حسن الذى ظل مكانه ، حتى اقترب منه لطيف بك فوقف له فى اجهاد :

ـــ اهلا سعادة البك .. لا تؤاخذنى فالمرض اقعدنى .

ويجيب لطيف بك فى محاولة بليدة للرقة :

ـــ سلامتك يا شيخ حسن .

ويعود القوم إلى مجالسهم ، ويأخذ لطيف بك مكان العمدة ، ويبدأ الحديث فور جلوسه :

ـــ سمعت بما حدث عندكم فقلت لابد أن أزورك ، إننى مستعد لكل شىء .

ـــ اطال الله عمرك يا سعادة البك ، والله لا ندرى من أين جاءتنا هذه المصائب .

ـــ غريبة .. انا نفسى تعجبت جدا ، وتممت على الأولاد فعرفت أنهم جميعا كانوا بعيدين عن أمكنه الحوادث ، وسمعت اليوم أن فى البلد إشاعة عن رجالى فاستعلمت ثانية فتأكد لدى انهم لا شأن لهم بهذه الحوادث . والأولاد عندى كلهم عيون على بعضهم البعض فلا يمكن أن يفعل أحد منهم شيئا ولا أعرف به ، وأنا لا ارضى أن اصيب بلدة مجاورة لى بشر ، خاصة وانا ارجو منها الخير فى الانتخابات ، وإنى ـــ وإن كنت سقطت فى الانتخابات الماضية ـــ إلا انى لا انسى انسكم بلدة محاورة .

ويقول واحد ممن جاءوا معه :

ـــ والله إن سعادة البك دائما يأمرنا الا نتعرض لأحد من هذا البلد بشر ابدا .

ويقول لطيف بك :

ـــ اليس كذلك ؟ .. وعلى كل حال انا سأظل وراء هذا المجرم حتى اعرفه .

وتختلط أصوات القوم بالدعاء للبك ، ويميل الشيخ رضوان على الحاج على هامسا فى صوت خفيض :

ـــ هل اقتربت الانتخابات ؟

ـــ اظن ذلك .

وجاءت القهوة فراح القوم يحتسونها بين دعاء للبك ، وبين شكوى إليه من وقف الحال بعد أن نفر التجار عن القرية ، وبين أمل فى المستقبل بعد أن باع الشيخ حسن قطنه إلى تاجر فى المديرية ، والبك يستمع يعلق أحيانا أو يرتجه الجهل بفاعل هذه الحوادث فيصمت ، ولم يكن البك ابقا فى الحديث ولا بذى علم فى غيره ، وإنما هو غنى فاجر جعل فى العصابة التى انشاها غناه عن كل ما عداها ، فهو بإجرامها قوى ، وباسلحة فتيانها عالم . الم يتيحوا له باسلحتهم أن يتكلم فيصمت الجميع ، وأن يشير فتسمع مشورته ، وان يلجأ إليه المتملقون ، يسألونه النصح فينصح ؟ فنصحه أمر لا محيد عنه ، فهو فى هذه الناحية عزيز وإن كان ذليلا ، وهو فيها عالم وإن كان أقلّ من جاهلٍ .

ولم يثبت البكّ اقدامه فى اعماق الطين ، ولم ترسخ دعائمه فى أقوار العفن عن قلة كفاية ولا عن لعب وهزل ، وإنما هو

قاتل سفاك ، ثبتت اقدامه بقتل من يجرؤ على معارضته ، ووطد دعائمه بالقضاء على كل من تطاول يوما فقال الله اكبر على الظالم والعاتى . والقتل طبيعة فى النفس الشريرة والحيـــاء ســـتار رقيق ، ولا فرق بين الشريف والقاتل إلا ستار الحياء الرقيق هذا ، فإن سقط هذا الستار وظهرت الطبيعة العارية ، فليس ثمة حد لما تفعله النفس الخبيثة ، فالقتل أهون شرورها . لقد كان البك يتخذ من هذا القتل اداة افتخـــار واعـــتزاز ، بل إن البكَ لا يخجل ان يصنطع منطقا للقتل ، فإن عجز عن اصطناعه اصطنعه المنافقون من حوله ، وقبله هو ورددده حتى اقتنع به وحاولَ أن يقنع به الآخرين ، ومن هـــؤلاء الآخـــرين من يقتنع لأنه لا يملك إلا ان يقتنع ، ومنهـــم من يصـــمت لأنه لا يمـــلك أن يتكلم ، ومنهم من يخشاه البـــك ـــ فإن لكل سيد سيدا ـــ فلا يقتنع ولا يهتم البك إن اقتنع هذا الذى يعلوه منزلة أو لم يقتنـــع ، فإنه حتى هـــذا الرجـــل الذى يخشاه البـــك مهما يكن مكانه منه لا يستطيع أن يصده عن طريق سار فيه فأمعن . وما دام هذا السيد الذى يخشاه البك قد قبل أن تكون ثمـــة صلة بينه وبين هذا البك المجرم ، فإنه هو أيضا يصبح ولا قيمة لرأيه ، وحسب البك منه أن يستعين به إن اقتضـــاه امر أن يستعين به ، وأن يستعين هو بالبكَ إن اقتضاه أمر أن يســـتعين به . ومهما يكن هذا الأمـــر هينا ، ومهما يكن شريفا ، إلا انه ـــ وقد استعان به ـــ فإنه يصبح أمامه أقل من أن يملى عليه رأيا . والبكَ لا يعدم فضيلة ، فهو يخـــلص اشـــد الإخلاص لأصدقائه على الا ينالوا منه ، وإلا انقلب عليهم .

هكذا كان البك بعيدا كل البعد عن الشرفاء لانهم هم لا يحبون ان يقتربوا منه ، وقريبا كل القرب من اولئك الكبار الذين يوسعون له فى مجلسهم ويسمحون له ان يقول على مسمع منهم فيغوص امامهم فى الوحل فيحقروه ولا ينتشلوه ، فهم إنما يصطنعونه لانفسهم ، ويكتفون بإلقاء دعابة مازحة تعليقا على حادث قتل قام به ويروى أمره عليهم . فإن اراد ان يسوق إليهم منطقه هذا الذى اصطنعه أو الذى اصطنع له ، رفضوا الموافقة عليه بدعابة أخرى ، واقنعوا انفسهم انهم قاموا بواجبهم ، وما أكثر ما تخادع نفسها النفس .

وقد يجد البك من يرده عن غيه ردا عنيفا ولكنه لا يرتد ، فقد شاء الله الروعف بعبساده ان يوجد بالناحية المجاورة انور بك صدقى . وهو رجل يحب الحق فلا يعدوه ، وقد ناصب لطيفا العداء وحاول أن يرده باللفظ فلم يرتد ، فسراح يحاربه بكل سلاح إلا سلاح الجريمة ، وكل سلاح بطىء امام الجريمة ، والسلاح المشهور اقل مضاء من السلاح المتستر بالليل الاسود من الضمير المريض . وقد كانت اسلحة لطيف جميعها مستورة ، وكانت اسلحة انور جميعها مشهورة ، فيرتكب لطيف الجريمة بالليل ويبلغ انور النيابة فى الصباح .

وهكذا كان يستطيع لطيف دائما ان يأتى جرائمه ، ولم يستطع انور ابدا ان يثبت عليه جريمة وإن استطاع ان يجعل اسمه فى كل مكان شريف سبة وعارا . وقد استطاع انور ان ينجح فى الانتخابات ، ولقد نال من قرية السلام نفسها اغلب اصواتها ، ولم يستطع لطيف ان يقتل من خرج عليه فى الانتخابات

لانهم كانوا أكثر من أن يقتلهم جميعا ، ولأنه كان يأمل منهم خيرا فى الانتخابات التالية . ولكن هـذا لم يمنعـه أن يصيب الأعيان الذين ناصبوه العداء فى إصرار عنيف ، والذين دعوا ضده فى غير بلادهم فهو يسرق بهائمهم ويحرق زراعاتهم ويهـددهم بالقتل إن امعنوا .

ولم يستطع انور أن يفعل شيئا إزاءه إلا ان يعوض هؤلاء بماله عما اصابهم فى سبيله ، وكان يبلغ الأمر إلى السلطات وهو واثق ان لا سبيل لهذه السلطات على المجرم الأصيل .

وهكذا لم يستطع انور إلا ان يحد من إجرام لطيف دون ان يصل إلى وقفه ، ولم يستطع لطيف أن يقتل انور فقد كان يعلم ان عائلته الكبيرة لن تسكت عنه إن هو فعل .

كان منطق لطيف أن الرجل الحقيقى هو الرجل الذى ينفع ويضر ، وانه لا خير فى رجل ينفع فقط ولا يضر أبـدا كأنور ، وبهذه الفلسفة البسيطة سمح البك لنفسه ان يشارك الله فى خلقه ، ويقتل ويسـمى ذلك ضررا ، ويجـزى ويسمى ذلك نفعـا .

والبك وإن يكن شـحيحا إنه كريم لصـحبه الكبار يبـذل لهم الهدايا ، وكريم ايضا لصحبه المجرمين يوسع لهم أسباب العيش ، إلا انهم إذا طمحوا إلى أكثر مما يعطيهم هيأ لهم مصيرا كذلك الذى هيأه لكبـيرهم الفرماوى على يد منصور الحفراوى .

ـــ ولا يجهل البك مجرما فى الناحية أو صديقا لمجرم أو متعلقا بالإجرام أو هاويا له . فهو ملجؤهم يختار لهم المحامين ويمدهم

بالقرض ـــ دون العطاء ـــ ، ويصطفى منهم لنفسه الاشـــداء الغلاظ .

هكذا كان لطيف بك لا يجهل احد من الجالسين إليه فى دوار العمدة شيئا من أمره .

ولقد اتفق جميعهم على احتقاره فى دخيلة انفسهم واختلفوا فى اسباب طى هذا الاحتقار لا يجاوز دخيلة النفس ، فمنهم من ينافقه عن طبيعة للنفاق ، ومنهم من لا يخاشنه لانه لا فائدة ترجى من مخاشنته ، ومنهم من لا يعنيه أن يصانعه أو يخاشنه فهو يتخذ منه موقفا لا مباليا ، فإن حياه أجاب ، وإن أقبل قام ، وإن غاب غاب فلا سؤال ولا ود .

جميعهم كان يحتقره ، شأنه فى ذلك شأن عارفيه جميعا . جميعهم إلا نورا فهو وحده الذى يكن له الاحـــترام ويبديه ، ومالـه لا يفعل ؟ ولطيف بك فى نظره المثل الأعلى الذى يحتذى ، والرجل الذى يحمى الرجال ، والإله الذى يجزى فجزاؤه بعض مال ، أو يعاقبه فعقابه الموت .

كان القوم لا يزالون يشربون القهوة حين اقبل الحاج إبراهيم فالقى سلاما دون أن يصافح أحدا ، واتخذ لنفسه كرسيا قصيا عن مجلس البك وقريبا من سلم الشرفة ، وعاد البك يفتح موضوع السرقات مرة اخرى مع الحاج إبراهيم :

ـــ ما رأيك يا حاج إبراهيم فى هذه الحوادث ؟

فقال الحاج إبراهيم فى بعض حدة :

ـــ رأيى يا سعادة البك انه لو كانت الناحية نظيفة من

المجرمين ، ولو كان المجرم يلقى عقابه الذى وضعه له القانون لا يستره عن العدالة أحد ، لما وقعت هذه الحوادث .

واستقبل البك هذه الملاحظة العنيفة فى صمت ولم يعلق عليها ، فهو يعلم أن الحاج إبراهيم لا ينطق بغير الحق ، وهو بغضى عما يقول لأنه يحتاج إلى عائلته الكبيرة فى الانتخابات ، ولأنه يعلم أيضا أن الحاج إبراهيم يقول له الحق فى وجهه ثم لا يصنع بعدها شيئا ، اللهم إلا الامتناع عن انتخابه .

ولم يكن ذلك فى نظر البك سببا كافيا للقتل ، فقد كان لا يقتل إلا خارجا عنيفا فى خروجه ، أو خارجا عليه من ذوى الإجرام ■

ونظر العمدة إلى الحاج إبراهيم نظرة فيها بعض لوم ، ولكنه لا يبالى ذلك منه بل يقول له :

ـــ طلقت سعدية من صالح ؟

ويقول العمدة متعجبا :

ـــ لا إله إلا الله يا حاج إبراهيم .. أهذا وقته ؟

ـــ الحق يقال فى كل الأوقات يا شيخ زيدان .. طلقت سعدية من صالح لأنه فقير .. كره الله هذا والمؤمنون .. كره الله هذا والمؤمنون ؟ !

ـــلا إله إلا الله يا حاج إبراهيم .

ـــ لا إله إلا الله دائما وفى كل وقت يا شيخ زيدان ، هو عون المظلوم على الظالم .. سلام عليكم .

ويقوم الحاج إبراهيم وينصرف وقد أخذت القوم رجفة من ذكر الله ، وكانوا قد انتهوا من شرب القهوة فقام البك لينصرف ،

وركب السيارة يحف به على الجانبين رجلان ، ويجلس الرجل الثالث فى مقدمة السيارة ، وقبل ان تتحرك السيارة ينادى الرجل الجالس فى المقدمة نورا :

ـــ يا نور .

ـــ نعم يا ابا سريع .

ـــ اريدك فى كلمة وحياة والدك.

ويسرع نور إلى أبى سريع ، ولكن ابا سريع لا يتكلم فيدرك نور انه إنما يريده فى سر ، فيدخل راسه فى السيارة ويضع اذنه على فم أبى سريع ، ويهمس هذا فى اذنه :

ـــ البك يريد الدفراوى ان يأتى إليه غدا .

ويجيب نور فى سرعة لا يسبقها ريث تفكير .

ـــ حاضر .

ويخرج نور راسه وتشرق على وجهه ابتسامة ، فقد بدا امام الجميع موضع سر من البك او من احد رجال البك ، وتشرق على وجهه ابتسامة أخرى لانه يعرف لماذا يريد البك الدفراوى . فقد كان يحزن البك ان تتم فى المديرية كلها عملية كهذه العمليات التى تمت دون أن يعلم بها من قبل ، او يعلم على الأقل فيما بعد من الذى ارتكبها . ولم يكن هذا الحب الجارف للعلم نتيجة حب استطلاع بل كان نتيجة حب البك للحياة ، فإن اى مجرم لا يعرفه قد يقتله ماجورا على ذلك او متفضلا ، ولم يكن البك يحب أن يقتل .

نعم كان نور مشرقا حين بارحهم البك ، فقد كان يظن ان الواقفين يجلون فيه انه موضع سر البك المجرم . ولو كشف

عن نفوسهم لأذهله الذى يجده بها من كره له وللبك جميعا ، ولأذهله أيضا احتقارهم إياه ، واحتقارهم المضاعف اضعافا كثيرة ـــ بقدر فرق درجة الإجرام بينهما ـــ للبك نفسه ، ولم يكن نور يظن أن لطيفا يمكن أن يكون محل احتقار من أحد .

كان الموعد قد حل لانتهاء الجلسة فقد جاء موعد العشاء ، استأذنوا من العمدة جميعا وانصرفوا ، وانفتل العمدة إلى منزله .

***

ذهب الحاج على والشيخ رضوان صامتين إلى دكان الحاج على فوجدا أحمد أبا خليل ينتظرهما ، فابتدرهما قائلا :

ـــ مرحبا .. مرحبا .. يدك أقبلها يا عم الشيخ رضوان .

فيقبلها ويلتفت إلى الحاج على :

ـــ يدك اقبلها يا عم الحاجعلى ؟

فيقبلها أيضا ، ولكن الشيخين غير راضيين فقد ارتجف قلباهما من حديث الحاج إبراهيم . ولم يجد الحاج على مفرا لنفسه من ضميره إلا أن يقول لأحمد :

ـــ يا ابنى ألم تجد وسيلة لترضى بها الحاج إبراهيم ؟

ويربد وجه الفتى وتعلوه الحسرة .

ـــ ماذا افعل له .. ؟ ماذا افعل ؟ قصدت إليه حين علمت بطلاق سعدية أرجوه أن يشترى الفدان الذى كان يريد شراءه ، وكنت قد اتفقت مع محجوب على أن يشترى منه عشرين قيراطا ،

وقلت فى نفسى : الفرق بين الثمنين يكون مهر سعدية . ولكن الحاج إبراهيم رفض أن يشترى الفدان وطردنى .

فقال الشيخ رضوان فى ضيق :

ـــ ارخص له الثمن .

ـــ أرخصته حتى بلغ ستمائة جنيه فاقسم لا يشتريه ، بل اقسم .. بل اقسم الا يقبله هبة فتركته .

فقال الحاج على :

ـــ لا حول ولا قوة إلا بالله .

وقال الشيخ رضوان :

ـــ لا حول ولا قوة إلا بالله .

***

وقصد الشيخ حسن مع ابنه صلاح إلى منزله ودلفا إليه فوجدا فضيلة تصلى العشاء ، ووجدا بجانبها الموقد والعيش وما تحتاج إليه القهوة ، فتركاها تنهى صلاتها ، ودخلا مخـــزن القطن فوجدا الانفار يعبئون القطن على ضوء المصباح ، فحياهم الشيخ حسن ، وخلع صلاح جلبابه واستعد ليأخـــذ مكانه مع الانفار وهو يقول : « كان الله فى العون يا رجال » .وما لبث أن غاص فى كيس وعلقه إلى سقف المخزن وهو يقول : « على بالمدد يا رجال .. هاتوا القطن لأريكم كيف يكون الكبس » .

فتركهم الشيخ حسن وخرج إلى زوجه فوجدها قد انتهت من صلاتها ، فحياها ثم طلب إليها أن تحمل الموقد والعشاء

وتلحق به إلى المقعد ريثما يصلى هو فرض العشاء . فأومأت له أنها ستفعل . فقد كانت لا تزال تسبح بعد الصلاة .

★★★

أما نور فقد انطلق إلى بيت النمرود يحمل فى ليلته أنباء ضخاما ، فقد كان سفيرهم إلى بيت العمدة ليتسمع الأخبار فتسمع وتزود منها ما لا تطيق جعبته أن تحمل ، وراح يقطع طريقه لا يدرى بأى اخباره يبدأ وبأيها ينتهى . وراح يصور فى ذهنه كيف سيطلق أخباره من عقالها الذى طال عليه الأمد من طول الطريق وانفراده فيه .

وبلغ نور منزل النمرود ودخله فوجد الجمع كما توقع أن يجدهم ، الزهار على الأرض يعد الجوزة ويديرها ، وكمال فى الصدر على الأريكة يحف به التبجيل والتوقير ، ويحف به أيضا النمرود والدفراوى .

— ١٢ —

فرغ الشيخ حسن من تناول عشائه وقهوته وراح يكمل سمره مع زوجته ، وراحت هى تعلق على حديثه بما يرضيه فما تعودت أن تلقى إلى سمعه إلا ما يرضيه ، وأحس الشيخ بعض برودة فى الحجرة فقال لزوجته :

ـــ بالله يا فضيلة اقفلى الشباك ، فإنى أحس بعض برودة .

وقامت فضيلة إلى الشباك فأقفلته ، وراحا يتحدثان مرة أخرى ، ولم يطل بهما الحديث إذ ما لبث حجر أن اقتحم عليهما الغرفة محطما الزجاج فى سبيله إليهما ، واستقر الحجر أمام الشيخ حسن . فسارعت فضيلة إلى الشباك وهى تسب الأطفال الأشقياء الذين لم ينالوا من آبائهم الكلاب حظ تربية ، وفتحت فضيلة الشباك وراحت تدور بعينيها فى الظلام فلم تر أحدا ، ولكنها أطالت الوقفة والسباب منتظرة أن يأمرها الشيخ حسن بالعودة إلى مكانها ، ولكن الشيخ حسن كان مشغولا بأمر جليل .

أمسك الشيخ حسن بالحجر الذى استقر أمامه وأراد أن يعطيه إلى زوجه المشغولة بالسباب لتلقيه إلى الشارع . ولكن

يده لامست شيئا غريبا معلقا بالحجر تبينه فإذا هو ورقة مطوية ، نشرها فإذا هى خطاب موجه إليه :

« عرفنا ان قطنك سيسلم غدا إلى التاجر ، ولكننا نوينا أن نأخذ من الأغنياء لنعطى الفقراء واليتامى والمساكين وأبناء السبيل ، فقد قال الله تعالى : (وفى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم .) . ولذلك فإننا سنأخذ منك عشرين جنيها عن كل قنطار جنيها واحدا ، وسنصرفها فى أوجه البر» ، فإن قبلت فأرسل المبلغ مع ابنك صلاح إلى طريق محطة السكة الحديد فيظل سائرا فيه ، وسيجد أحدنا ليرشده إلى الخص الذى نجلس فيه الآن ، واعلم انك مراقب من الآن حتى يحضر صلاح بالفلوس ، فإن حاول أن يأتى بأحد معه فسيقتل هو ومن معه ، وإياك وعدم الدفع لانك ستحزن حزنا شديدا ، وقد انذرناك وانت من الآن المسئول وحدك عما سيحدث لك » .

(جماعة الخير)

قرأ الشيخ حسن الورقة ثم أعاد قراءتها ثم أعاد ، وفضيلة لا تزال بالشباك تشتم من قذف الحجر . فوضع الشيخ حسن الورقة فى جيبه وتوكأ على الأثاث حتى بلغ الشباك ، وراح ينظر مع فضيلة التى التفتت إليه قائلة :

ـــ لا أحد ، لا أدرى أين ذهب ابن الكلب .

فلم يجب الشيخ حسن وإنما راح يتوكأ مرة اخرى على الأثاث حتى بلغ باب الحجرة ، وفتحه ونادى « يا صلاح » . ولكن صوته لم يبلغ ابنه فسألته زوجته :

ـــ تريده فى شىء يا شيخ حسن ؟

فقال لها :

ـــ نعم ، ناده .

فنادت فضيلة من عند السلم بصوت جهير :

ـــ يا صلاح .

وسرعان ما جاء الجواب :

ـــ نعم يا أم .

فقالت :

ـــ كلم أباكَ .

وجاء صلاح إلى حيث يبلغ اذنه حديث ابيه :

ـــ نعم يا ابى ؟

فقال الشيخ حسن :

ـــ اخرج إلى الشارع ودر حول المنزل وانظر إن كان احد واقفا ، واسرع .

وراح صلاح يصدع بالأمر ذاهلا فهو لم يسمع الزجاج وهو يتحطم ، فالأمر غريب بالنسبة إليه ، ولكنه لا يسعه إلا أن يطيع أباه . وسرعان ما عاد صلاح يقول :

ـــ لا احد يا ابى .

فقال الشيخ حسن :

ـــ احكم رتاج الباب وعد إلى عملكَ .

فقال صلاح :

ـــ امركَ يا ابى .

وعاد الشيخ حسن يقولُ :

ـــ اما زال امامكم عمل كثير ؟ .

فقال صلاح :

ـــ لا يا أبى ، فقد أوشكنا أن ننتهى .

فقال الشيخ حسن :

ـــ فاذا انتهيتم وخرج الانثار فاحكم الرتاج بعدهم .

فقال صلاح وهو لا يزال ذاهلا :

ـــ أمرك يا أبى .

وانصرف صلاح عاجبا من أوامر أبيه هذه المتلاحقة ، فهو قد تعود أن يحكم رتاج الباب ولكنه لم يتعود أن يطلب إليه ابوه ذلك ، كما لم يتعود أن يطلب إليه ابوه أن يدور حول المنزل ليرى إن كان أحد واقفا ، ولكنه اقنع نفسه أخيرا بأن اباه يحتاط فى هذه الأيام التى شاعت فيها الحوادث ، وإن كان هذا الرأى لم يقنعه كل الإقناع فهو يعرف اباه ثبتا لا يخف فؤاده ، ولكنه لم يجد غير هذا الرأى فقبلته نفسه فى مضض وحيرة .

وعاد الشيخ حسن إلى غرفته فوجد عينى زوجته حائرتين فى وجهه ، تكاد تسأله العينان قبل اللسان :

ـــ خير يا شيخ حسن ؟ أكل هذا من اجل حجر القاه طفل ؟

وغمغم الشيخ حسن متفكرا :

ـــ لعب عيال .

فقالت الزوجة وهى حائرة لا تزال :

ـــ طبعا يا شيخ حسن لعب عيال ، فلماذا هذا جميعه ؟

وغمغم الشيخ حسن مرة اخرى :

ـــ لا شىء ، مجرد احتياط لا اكثر . هلم إلى النوم يا فضيلة .

وقصد الشيخ حسن إلى السرير الأسود القائم على أعمدته الأربعة فى ركن الحجرة ، وخلع عمامته وأعطاها فضيلة التى وضعتها على المنضدة ، ثم خلع الشيخ جوربه فى بطء ذاهل ، والقى بنفسه إلى السرير غير حائر ، فهو لم يفكر لحظة فى أن يجيب جماعة الخير إلى مطلبهم فما تعود التهديد ، وما كان ليقبل أن يكون فريسة سهلة . وقد رأى أنه إن قبل فستتمادى جماعة الخير فى فرض إتاوتها فيعم الخراب القرية . ولكنه مع ذلك لم يعدم هاجسا فى نفسه أن هذه الجماعة قد تصيبه بسوء وإن كان لا يدرى أى سوء يمكن أن تصيبه به ، ولعله يرد هذا الهاجس عن نفسه بأنهم لن يجرؤوا . فلئن ينتهز لص من الليل غفلة ويهاجم بعض نفر فى الطريق ، فما يعنى هذا أن يجترىء هذا اللص فيفرض الإتاوة على وجوه القرية وأعيانها . وهكذا راح يفكر الشيخ حسن فى فراشه بينما راحت زوجته فى سبات بعيد . وما لبث الشيخ حسن أن راح يتمتم فى صوت ثابت : (بسم الله الرحمن الرحيم ، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ، ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ، فتربصوا ، إنا معكم متربصون) . صدق الله العظيم .

وراح الشيخ يردد هاتين الآيتين حتى أسلمتاه إلى نوم هادىء عميق .

جلست جماعة الخير فى الخص الذى اقاموه فى الصحراء قريبا من الطريق الواقعة بين البلدة ومحطة السكة الحديد ، وقد تحلق جميعهم حول كمال يبدلون له الإعجاب بخطته ، وهل تخيلوا يوما انهم سيقيمون لكل عملية خصا يتسلمون فيه ما قد فرضوه على ضحيتهم ، ثم يهدمونه ويزيلون اثره ليقيموا مثله فى مكان آخر ، فيضيع أثرهم فى عرض الصحراء ولا يعرف لجماعتهم مستقر ؟ وهل فكر أحدهم إلا كمالا فى أن يترك الحجرة التى كانوا يجلسون بها فى بيت النمرود مضاءة مقفلة بالمفتاح ، حتى يظن العابرون بالمنزل والجيران ان اهل الحجرة جالسون بها لم يغادروها ؟ لا ، إن أحدا لم يفكر بهذه العبقرية إلا كمال .

وقد اتخذ كمال من مغارته المركز الرئيسى للجماعة .. لقد كانت تلك المغارة مهبط وحيه ، فيها انقطع عن الناس ليفرغ إلى الشيطان فيضع تلك الخطة التى ينفذها اليوم . وهكذا وجد أفراد الجماعة الجديدة رياسة حازمة تأتلفهم وتضع لهم الخطط قويمة قوية ، ووجد كل منهم لنفسه بندقية على أحدث طراز ومسدسا بسلقية ، كما هيأ كمال لكل منهم حصانا جعل مستقره فى مغارة الوحى .

وهكذا استقام الأمر لكمال ، فهو يغدق عليهم من كرمه ، وهو يهددهم بأسرارهم ، وهو يروعهم بخططه المحكمة ، وهو من قبل قد جعلهم يقسمون له يمين الولاء على المصحف . وبين الإكرام والتهديد ، والوعد والوعيد ، تلين نفوس وتقبل ما لم تكن لتقبله ، فقبل العتاة الأربعة أن يكونوا اتباعا لكمال بعد أن كانوا يأنفون أن يكون كمال تابعهم .

قال الدفراوى :

ـــ ما للزهار تأخر ؟

فقال نور :

ـــ إنه ينتظر صلاحا على الطريق .

وقال النمرود :

ـــ ولكن الانتظار طال .. اخشى ان يكون الزهار قد وقع فى مكروه .

فأجاب الدفراوى :

ـــ أى مكروه يمكن أن يقع فيه ؟ لقد أعد له أبو كمال كل خطوة يخطوها حتى يصل بالمال إلى هنا .

وراح نور يقول :

ـــ إن عملية الزهار عملية عيال .

وعندئذ فقط تكلم رأس الحكمة كمال :

ـــ أحب أيها الإخوان أن نتعود الا نحقر أى عمل يقوم به فرد منا ، فلكل أعمالنا مكملة لبعضها البعض .. لولا عملية الزهار ـــ وهى عملية كبيرة ـــ لما اتيح لنا ان نبدأ أعمالنا كلها .

فقال النمرود :

ـــ نعم يا أبا كمال أنت محق ، وعملية الزهار عملية مهمة فعلا يا نور ، إنه سيرمى الحجر ثم يسارع بالاختفاء ، ثم هو سيقف لينتظر صلاحا ، وأنتم تعرفون أن الشيخ حسن صلب الرأى لا يقبل ما يفرض عليه بسهولة ، فقد يرسل مع صلاح من يقبض علينا .

فقال نور :

ـــ نعم ، ولكن الم نتفق حينئذ أن يطلق الزهار عليهم بندقيته ؟

فقال النمرود :

ـــ الزهار فرد واحد ، ومهما يكن ماهرا فى التصويب فإنه إن جاءته جماعة لا بد أن تتغلب عليه .. فهى عمليـــة ليست يسيرة كما تتصور .

فقال الدفراوى :

ـــ الشهادة لله أيها الإخوان العملية التى نقوم بها كبيرة ، وما كان يصلح لها إلا نحن .

وهكذا جرى الحديث بين الجماعة ، وقـــد اتخذ كمال منـــه موقفا متعاليا فلا يشاركَ فيه بغير ملحوظة يبذلها ليضع القواعد ويؤسس العمد .

لم يطل بالقوم هذا الحديث إذ سرعان ما أقبل إليهم الزهار ، فما إن رأوه حتى وضع كل منهم لثاما حول وجهه فلا يبين ، ولكنهم سرعان ما أدركوا سخافة ما فعلوا حين تبينوا أن الزهار لا يضع اللثام ، فصاح كمال :

ـــ ويحكَ أين لثامكَ ؟

فقالَ الزهار :

ـــ لم اللثام يا أبا كمالَ ؟ إن أحدا لم يأت بعد ولكن ..

فقال كمالُ فى عنفَ :

ـــ فماذا جئت تفعلَ هنا ؟ . الا يجوز أن يأتى الآن سى صلاح .. صلاح .. فلا يجدكَ ويعود ؟

ولكن الزهار قالَ :

ـــ تريث يا ابا كمـــال .. هل قلت لوطنيـــة ان تأتى إليك بالعشـاء ؟

فقال كمال :

ـــ نعم .. امن أجل هذا تركت مكانك ؟ .. أين هى ؟

ـــ امرتها ان تنتظر حتى اعود إليها .. بنت الكلب هزئت منى ، اردت أن اضع اللثام حين رايتها قادمة فإذا هى تقول : « مبروك البرقع يا زهار » . فاردت أن ..

فقال كمال مبتسما :

ـــ اذهب يا زهار إلى مكانك وارسل وطنيـــة ، ولا تضع الوقت .

وخرج الزهار ، والتفت الدفراوى إلى كمال يسأله فى تمحل محاولا أن يفتح لنفسه طريقا للمزاح مع الزعيم :

ـــ خير يا ابا كمال ، هل نحن اليوم مدعوون إلى العشاء عندك ؟

فقال كمال فى جد رغمى :

ـــ العشاء على حسابى فى كل يوم نقوم فيه بعملية .

ـــ يا زين الرجال يا ابا كمال .

واقبلت وطنية بعد حين بالعشاء ، وما إن دخلت حتى قالت :

ـــ مساء الخير يا جماعة .

فإذا كمال يقول لها فى حزم :

ـــ اخرسى يا بنت ، جماعة فى عينك قليلة الادب .

ـــ لماذا يا سى كمال .. ؟ اكل هذا لانى قلت يا جماعة ؟

الستم جماعة الخير ام ظننتنى ـــ لا قدر الله ـــ اقصد الجمـــاعة التى يقصدها الفلاحون حين يتكلمون عن نسائهم ؟

وادرك كمال ان الإطالة فى الحديث قد تؤدى به إلى موقف لا ترضاه الزعامة ، فاقصر عن النقاش وسأل وطنية :

ـــ ماذا احضرت لنا ؟

ـــ اوامر سعادتك يا كمال بك .. فراخ وحمام ولحم وارز ، وسعادتك قلت إنك لا تريد خضـــارا ، الآن نفســـك ملته ايام الفقر .

فقال كمال مسارعا :

ـــ طيب ، طيب .. اقعدى كلى معنا .

ـــ لا ، اكثر الله خيرك . قد تركت نصيبى فى البيت وسأتعشى وحدى ..

فاسرع كمال يقول محاولا ان ينقذ نمام الزعامة التى اوشكت هيبتها ان تنهار امام الرعية :

ـــ طيب ، مع السلامة .

وخرجت وطنية ، واراد الدفراوى ان يغير الحديث فقـــد ادرك ان اللهجة التى كانت تتحدث بها وطنية لم ترق كمالا . قال الدفراوى وهو ياكل نصيبه من العشـاء :

ـــ هيه يا ابا كمال .. هل انت آت معى غدا إلى لطيف بك ؟

فقال كمال :

ـــ نعم ، فإن دعوته لك لم تكن إلا نتيجة طبيعية للخطة التى دبرتها .

فتساءل الثلاثة فى لهفة :

ـــ كيف ؟

ـــ ألم أطلب إليكم أن تشيعوا أن أفراد عصابة لطيف بك هي التي قامت بهذه الحوادث ؟

ولم يبال كمال ثلاثتهم وهم يقولون : « آه » مذهولة ، بل راح يكمل حديثه :

ـــ لقد أردت أن يسمع لطيف بك بهذه الإشاعة فيرسل إليك يا دفراوى .

وسأل الدفراوى :

ـــ وماذا تريد منه ؟

قال كمال :

ـــ إنه غدا سيسألك عمن قام بهذه الأعمال .

فقال الدفراوى :

ـــ طبعا .

فقال كمال :

ـــ إنه ركن يمكن الاعتماد عليه ، وكل ما أريده أن تقوم بيننا صداقة ، فإننى أخشى أن يقضى علينا إن لم نصادقه .

فقال النمرود :

ـــ يحميك الله من العوادى يا أبا كمال ، نذهب إليه غـــدا بعد المغرب إن شاء الله .

وقال كمال فى هدوء :

ـــ أنا لا أخشى أحدا إلا أنور بك .

فقال الدفراوى :

ـــ أنور .. الله يخرب بيته ، إنه سيقف لنا كالعقلة فى الزور ، ووالله لولا عائلته لقتلته من زمن بعيد .

فقال كمال فى حزم :

ـــ اسمع يا نمرود ، عليك أن تذهب غدا إلى « الرحايمة » وتعرف إن كان أنور فى العزبة أم فى مصر .

فقال النمرود :

ـــ أنا لا أعرف أحدا هناك ، فقد حرم عليهم أنور أن يدخنوا الحشيش فقطع عيشى من هناك ، الله يقطع ..

وقال الدمراوى مقاطعا :

ـــ الشهادة لله أهل الناحية يحبونه كل الحب .

فقال نور :

ـــ والشهادة لله إنه رجل يحب .. كان إذا أتى إلى المديرية همّ من بها جميعا إلى استقباله وتقديم الاحترام له ، واشهد أنه كان يعطى نفحات طيبة .. أما لطيف بك فمع أنه كان يعطى نفحات طيبة هو أيضا إلا أنه لا أدرى لماذا ..

فقاطعه كمال فى حزم :

ـــ اذهب أنت يا نور وأعرف لنا أين أنور الآن .

ـــ حاضر ، سأذهب حين تكونون أنتم عند لطيف بك .

وراحت جماعة الخير تدير الحديث بينهما ، كل همها أن تقطع الوقت حتى يأتى لها المال المنتظر ، أو حتى يلوح الصباح فقد كان لهم مع هذا الصباح شأن إن هو سبق العشرين جنيها المفروضة على الشيخ حسن ، وطال الحديث ، وتناوب نوز

والنمرود والدفراوى القيام إلى الزهار فى موقفه ليروا إن كان احد قدم ام لا ، وكان الجواب دائما لا .

واقترب الفجر فأذنت الديكة والظلام لا يزال يلف الكون ، وجاء الزهار يائسا فنظرت الجماعة إلى كمال . وانعم هو فيهم النظر واحدا بعد الآخر حتى إذا التقت نظرته بمنصور وقفت عنده جامدة ، وفهم منصور تلك النظرة فقام واقفا وخرج دون أن يقول شيئا .

وقامت بقية الجماعة تزيل آثارها من الخص واهالوا الرمال على بقايا طعامهم ونيرانهم ، ثم هدموا الخص وتقاسموا قصباته يحمل كل منهم بعضا منها ، ورحلوا عن مكانهم ملثمين جميعا بعد أن القوا نظرة أخيرة على المكان ، ارادوا بها أن يتأكدوا أن الرمال لن تشى بهم أو تبوح .

— ١٣ —

استيقظ الشيخ حسن من نومه مع الفجر فوجد زوجه قد سبقته إلى اليقظة ، ووجد بالبيت ضجيجا وحسركة ، فسسأل زوجته فأخبرته انهم الأنفار الذين اتفق معهسم صلاح أن يأتوا ليحملوا القطن إلى سيارة التاجر . فابتدر الشيخ حسن وضوءه وصلى الفجر وقد أحس أن المرض قد بدأ يزول عنه ، وما إن انتهى من صلاته حتى سأل زوجه :

— وهل أخرجت لهم الفطور ؟

— نعم ، ولكن صلاحا لم يأت حتى الآن وأخشى أن تأتى السيارة قبل مجيئه .

— لم يأت ؟ ! وأين ذهب ؟

— ذهب إلى الحقل ليحضر بعض أطراف من أعواد الذرة لتأكلها البهائم .

— كان عليه الا يذهب اليوم حتى يسلم القطن .

— إنه يذهب كل يوم ويعود فى الفجر ، وقد حسب أنه يستطيع أن يذهب ويعود قبل أن تأتى السيارة .

فقال الشيخ حسن وقد داخله بعض التوجس :

ـــ لا حول ولا قوة إلا بالله .. ما ضر لو كان انتظر اليوم إلى أن ينصرف التاجر .

ثم قصد إلى الشباك فنظر منه فلم ير ابنه قادما ، ولكنه رأى بباب بيته رجالا كثيرين فسأل زوجته :

ـــ بالباب احمد ابو خليل والشيخ رضوان والحاج على ونور الكحلة ، وكثير غيرهم . ماذا جاء بهم فى باكر الصباح ؟

فقالت الزوجة متنهدة :

ـــ لقد جاءوا ليبيعوا قطنهم إلى التاجر كما بعت ، فقد اصبحوا ....

وقبل أن تكمل فضيلة جملتها جاء من بعيد صوت نفير سيارة ، ثم ما لبث الشيخ أن تبينها تقترب من بيته عالية الضجيج كثيرة الجلبة .

وما إن وقفت السيارة بباب البيت حتى تحلق القوم الواقفون بها ، ورأى الشيخ حسن من مكانه التاجر وهو يدافع عنه القوم المتحلقين ليتمكن من النزول من السيارة ، حتى إذا استوت اقدامه على الأرض سار بهم إلى المصطبة وجلس إليها وقعد القوم حوله على الأرض ، بينما راح الحمالان القادمان مع السيارة يعاونان انفار الشيخ حسن فى وضع القطن بالسيارة .

وتوكأ الشيخ حسن على عصاه حتى نزل إلى القوم فحياهم ، وقام التاجر مرحبا بالشيخ حسن ، ثم ما لبث أن أخرج من جيبه لفافة كبيرة من الأوراق الخطيرة الشأن وقال للشيخ حسن :

ـــ مبارك يا عم الشيخ حسن .

ـــ بارك الله فيك يا أبا عليوة .. مباركة صفقتك إن شاء الله ، وإن كنت قد أنقصت الثمن عن السوق خمسة جنيهات فى القنطار ... النهاية ... مباركة والسلام ... ذهب صلاح ليحضر طعام البهائم وتأخر فقلت أنزل إليك نشرب القهوة معا .

ـــ أهلا وسهلا .. ثمن القطن ستمائة جنيه ، أخذت مائة فيكون الباقى لك خمسمائة جنيه .

وعد أبو عليوة خمس ورقات أعطاها للشيخ حسن ، أخذها هذا ووضعها فى حافظته بينما راح الواقفون يباركون له وللتاجر ، ثم راح كل منهم يكلم التاجر عما لديه من قطن ، وسرعان ما انعقدت الصفقات بعد أن بخس التاجر أثمان القطن ، منتهزا فرصة انفراده بالقرية لخوف التجار الآخرين منها ، وراحت أوراق خضراء كثيرة تنشر وتطوى ، وراحت ألفاظ التبريك تتناثر على الشفاه . وكان قطن الشيخ حسن قد استقر على السيارة ، فقام التاجر وقد وعد أن يعود فى اليوم التالى ليتسلم الأقطان الأخرى ويسلم أثمانها .

انصرفت السيارة بحملها ، وظل القوم حول الشيخ حسن يتحدثون وهو عنهم لاه قد ازداد توجسه ، فهو ناظر إلى الطريق لا يريم ، حتى إذا لحظ الجماعة انصرفه عنهم هموا بالانصراف ، إلا أن واحدا منهم يسأل الشيخ حسن :

ـــ مالك يا عم الشيخ حسن ؟

ـــ تأخر الولد .

ـــ من ؟

ـــ صلاح ؟

ـــ لا تخف ، لابد أن عائقا عاقه .

ـــ لا يمكن ، ما كان شيء يعوقه عن تسليم القطن .. اللهم إلا ...

ـــ يا رجل وحد الله .. وعلى كل حال سأذهب إلى حقلك لأرسله إليك .

ـــ لا تتعب نفسك ، فالأنفار الذين كانوا يحملون القطن ما زالوا هنا ينتظرونه ليعطيهم أجورهم ، فهو من يعلم مقدارها .

ونادى الشيخ حسن :

ـــ يا سيد .

ـــ نعم يا عم الشيخ حسن .

ـــ وحياة والدك اذهب إلى الحقل وانظر ما الذى أخر صلاحا حتى الآن .

ـــ حاضر .

وانصرف سيد وراح القوم يتحدثون مرة أخرى ، ولكن الشيخ حسن لا يزال منصرفا عن حديثهم حتى يسأله الحاج على :

ـــ مالك يا شيخ حسن ؟ الآن ابنك قد تأخر بعض الوقت تخاف كل هذا الخوف ؟ لا يا رجل ، لم نعهدك هكذا ، أم تراها هذه الحوادث أخافتك إلى هذا الحد ؟ !

ـــ اسكت يا حجعلى انت لا تعرف شيئا .

ـــ لا أعرف ماذا يا شيخ حسن ؟ ! لا أعرف ماذا ؟ هل هناك شيء ؟

ـــ لا شيء يا حجعلى ، لا شيء ، سليمة إن شاء الله .

ـــ قل لنا يا شيخ حسن ، هل هناك شيء لا نعرفه ؟

وقبل أن يجيب الشيخ حسن ، يتعالى صياح من أقصى الطريق :

ـــ الحقونا يا هوه .. الحقونا يا ناس .. ابنك يا شيخ حسن .. ابنك

وينسى الشيخ حسن المرض وينسى عصاه ، ويلقى بجسمه إلى الطريق لا يعى شيئا إلا هذا الهول الذى يناديه من أقصى الطريق :

ـــ ابنك يا شيخ حسن .

وينتفض صوت الشيخ وهو يقول :

ـــ ماله ابنى ؟ .. ماله .. قل .. ماله .. ماله ابنى ؟ ماذا جرى له ؟

ويأتيه الصوت من قريب يحمل إليه الفاجعة :

ـــ ابنك قتل يا شيخ حسن . قتل ..

وينهد الشيخ حسن إلى الأرض ذاهلا :

ـــ قتلته .. قتلت ابنى .. حسبى الله ونعم الوكيل .

ويرتفع الصراخ من أعلى المنزل تطلقه الأم الثكلى ، ثم ما تلبث أن تندفع من الباب فى ثياب البيت فيتحلق حولها الشباب ويأخذون بها إلى داخل المنزل مبهورة عالية الصراخ ، تدافعهم عن نفسها تريد أن تذهب إلى الحقل لترى ابنها الصريع . وما تلبث النسوة من الجارات أن يقدمن إليها فيأخذن مكان الشبان الذين يخرجون إلى الحقل بعد أن أخذوا معهم ملاءة

يلفون بها الفتى القتيل . ويحيط القوم بالشيخ فيحملونه إلى المصطبة وهو ما يزال يقول ذاهلا :

ـــ قتلته .. قتلت ابنى .

ويسأل الحاج على :

ـــ وما ذنبك انت يا شيخ حسن ؟ .. ما ذنبك انت ؟

ويقول الشيخ حسن وهو ذاهل لا يزال :

ـــ كبر على ان يهددنى المجرمون فابيت ان ادفع لهم ما يطلبون .. لم اكن اظن انهم سيقتلون .. حسبتهم لصوصا ولم أحسب أنهم قتلة .. حسبى الله ونعم الوكيل .

نظر الحاج على إلى من حوله فى أسف شديد متوهما ان الشيخ قد اصبح مدخول العقل ، ولكن توهمه لم يمنعه ان يسأل الشيخ حسن :

ـــ ماذا تقول يا شيخ حسن ؟

وثاب الشيخ حسن إلى نفسه بعض الشىء حين راى النظرات الحائرة من حوله تكاد تتهمه بالجنون .

ولو كان الشيخ فى تمام وعيه ، ولو انعم النظر فى عينى نور لراى فيهما .. وفيهما وحدهما انهما غير حائرتين ، بل إنهما جامدتان تحملقان إلى الرجل فى تشوف العارف بالأمر لا يحدسه .. ولكن من اين للشيخ المهيض وعى ؟ ومن اين له ان ينعم النظر ؟ لقد كان قصاراه أن يثوب إلى نفسه بعض الشىء فى زحمة هذه الحيرة التى اشاعها فى الواقفين ، وكان قصاراه ان يدرك انهم لا يعرفون من امر خطاب الأمس شيئا ، وفى نظرات غائرة يخرج الشيخ حسن الخطاب من جيبة ويعطيه

الحاج على ، ويقرؤه الرجل ثم يخطفه منه من يليه ، ويروح الخطاب يلف فى الأيدى بين اعين جازعة حيرى ينظر كل منهم إلى المستقبل الذى ينتظره ، وتزداد الأيدى الخاطفة أو الاعين الهالعة فليس بين الجمع إلا من اخذته الرعدة إلا نورا .. وحده الذى كان ثابت الجأش راسخ الفؤاد ، وقد وصل الخطاب إلى يده وتظاهر بقراءته بينما كانت عيناه تدوران فيمن حوله ، يريد أن ينتهز منهم غفلة ليضع الخطاب فى جيبه . ولكن هيهات ، فقد كانت العيون كلها على الخطاب ، وما لبثت يد ان اختطفت الخطاب من يده قبل أن يفكر فى الوسيلة التى يخفيها به . واخذت الرعدة طريقها ثانية إلى القلوب بعد أن كانت قد توقفت عن سيرها قليلا عند نور ، حتى الفقراء الذين لا يملكون شيئا والذين عرفوا ان بالخطاب بشيرا لهم بالغنى .. حتى هؤلاء لم يملكوا فى هول الموقف إلا ان يرتعدوا مع الراعدين . وما هى إلا بعض الساعة حتى عاد الشباب بالجثة ، وحتى علا فى اجواء قرية السلام صوت الطبلة رتيبا ضخما عاليا ، تقرعها يد ثبتة واعية هى يد كمال .

— ١٤ —

وقيدت الحادثة ضد مجهول ، كما كشف الخطاب عن شيء للنيابة ، فما كان أحد ليعرف خط كمال وما كان أحد ليفكر فى كمال ليستكتبه .

لم يكشف الخطاب عن شيء للنيابة ، ولكنه كشف لملاك قرية السلام الطريق الذى لابد لهم أن ينهجوه . لقد عرفوا أنهم لا بد لهم ان يدفعوا الإتاوة التى تفرض عليهم ، وعرفوا أنهم إلى الموت إن فكر واحد منهم أن يشى بالخطابات التى ترد إليهم مع الليل .

وحاول الشبيبة المثقفون فى القرية أن يثنوا القوم عن طاعة الأوامر ، ولكن هيهات لهم أن يصلوا بشجاعة الفاظهم إلى القلوب الراعدة بين اضلاع القوم المساكين . وراح التاجر أبو عليوة يخرج كل يوم بقطار من القرية فتعرف القرية أن الإتاوات قد دفعت مساء أمس عن كل قنطار خرجت به سيارة التاجر صباح اليوم .

وقد كان يصاحب كل سيارة خارجة حركة نشاط من المثقفين ، ولكنه نشاط يبلغ مصيره دائما إلى الفشل .

وكان فخرى قد جاء إلى القرية تلبية لأمر أبيه ، واستقبلته

الفاجعة فى بيته فسراح يبذل كل جهده أن يصل إلى خسيط يهديه ، ولكن من أين له والفرائص من حوله ترتعد ، والالسن لا تملك أن تتحرك خفية فى افواهها ؟

لقد كان أمر أفراد العصابة مجهولا ، وفى ستار الجهل بهم كانوا يعرفون ما يدور بالقرية جميعا ، فإذا القرية وقد غشسيها الذعر الراجف ، تلتقى الامين حسرى كليلة ، ويدور الحديث ، كل حديث ، فلا يلبث أن ينتهى إلى صمت مفاجىء ، ويطسرق المتحدثون . فقد كان كل حديث يؤدى بهم إلى الرزء الذى انحط على القرية ، والذى لا يستطيعون أن يصفوه فقد ملأهم الخوف أن يصفوه .

الشك والريبة والمهانة والخوف . يحذر الاخ أخاه والاب ابنه والابن اباه . النسوة ذاهلات حيارى ، لقد رأين رجالهن ضعافا خانعين فانعدمت الثقة فى نفوسهن ، فما أصبحن يثقن بأحد ولا بشىء .

العمدة جازع تزداد نفسه ذلة امام نفسه ، رائه كل يوم غاد إلى المركز ومنه لا يدرى ماذا يقول .. أيقول إنه دفع الإتاوة هو أيضا وإنه لا يدرى إلى من دفعها ؟ .. أيقول إنه وهو العمدة قد تلقى الرسالة مثل من تلقاها ؟ وانه خرج من باب الحريم فى دواره وذهب فى بهيم الليل إلى خص فى عرض الصحراء ، ودفع إتاوة إلى قوم ملثمين لا يبين منهم شىء فى ذلك الضوء المتهافت الذى اصطنعوه فى خصهم ؟

ماذا يقول العمدة وماذا يفعل ؟ إلا عبرة تتحدر من عينيسه كلما ذكر وقفته من جماعة الخير وهم جلوس ، ودفعه لهم المال

يكاد يرى السخرية به فى اعينهم الخبيثة ، بل فى ايديهم التى امتدت إلى ماله ، والتى كانت مغطاة هى ايضا بالقفازات القطنية ؟ . ماذا يقول العمدة وماذا يفعل ؟

وانفذ كمال وعده إلى الفقراء فقد كانت تهبط عليهم صبابة من المال من حين إلى حين ، وكم فرحوا حين وافتهم الدفعات الأولى ثم كم حزنوا بعد حين .

لم يكن هؤلاء الفقراء إلا الأجراء الذين يعملون بالاجرة فى حقول الملاك الصغار ، وقد كان شأنهم فى هذا الموسم انَ يستأجروا ليبذروا البرسيم تحت الذرة ، ولكن الملاك لم يستأجروا واحدا منهم ولم يبذروا البرسيم ، بل إنهم حتى لم يفكروا فى قطع الذرة وتهيئتها للبيع . وكيف لهم ان يفعلوا وهم لا يدرون ماذا يحمل لهم الغد ! أتعيش بهائمهم لتأكل البرسيم ؟ أيباع الذرة إذا قطع ؟ .. لا يعرفون فهم لا يستأجرون احدا ، وبحسبهم ما معهم من ثمن القطن يعيشون به وتعيش به بهائمهم أيضا ، حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .

الفقراء أيضا فى حال من السخط الشديد ، فما كانت الأموال المفاجئة لتغنيهم عن الأجر المنتظم ..

مجلسان فى القرية لم ينقطع فيهما الحديث فجاة ، ولم تلتق فيهما العيون حسرى كليلة : المجلس الأول هو مجلس كمال ، وقد كان يأخذ فيه مكانه من الأرض صدر الليل ، حتى إذا انتثر عنه الناس وانفضوا إلى بيوتهم وخلا بهم المجلس ، ارتقى كمال مكانه على الأريكة ، اما الأرض فهى لأى واحد منهم غيره .وقد تنبهوا بعد الليلة الأولى أن يتركوا بهذه الحجرة

الزهار او النمرود إذا خرجوا هم إلى عملية لهم ، حتى يبيع ذلك المتروك المخدرات إلى من يقصد إلى بيت النمرود فى اغوار الليل . وقد امر كمال ان يكون البيع دائما خارج البيت حتى لا يكتشف المشترى خلو الحجرة منهم عندما تخلو ، على انهم لا يلبثون بعيدا عن الغرفة إلا ريثما يتم تسليم المبلغ المفروض ، ويذهبون إلى المغارة يودعونها اسلحتهم ثم هم ينقلبون إلى حجرة النمرود فرادى .

واما المجلس الآخر الذى اتصل فيه الحديث فهو مجلس الحاج على ، الذى تخلى عنه الحاج إبراهيم ليحل محله احمد ابو خليل الذى لم يدفع بعد مؤخر الرشوة إلى الشيخ رضوان . وقد اتصل الحديث بينهم لأنهم كانوا يمتدحون ما تقوم به جماعة الخير ويذيعون هذا الحديث ويروجونه ، فقد كان النفاق فى دمهم لا يطيقون عنه محيدا . وقد كانوا جميعا اضيق ما يكونون بجماعة الخير فقد دفعوا هم ايضا — ما عدا احمد — الإتاوة المفروضة عليهم ، ثم ارتأوا ان يذيعوا بين الناس انهم دفعوها حبا فى الخير ، واقتناعا بالفكرة التى تسعى إليها جماعة الخير .. يحاولون بذلك ان يدافعوا عن كرامتهم التى هتكها الإجبار ، وتبعهم فى قولهم بعض القوم ليظهروا أمام نسائهم انهم أشداء وإن كانوا قد دفعوا الإتاوة ، وانهم كرماء يطيب لهم ان يمدوا للفقير عونا ..

كان هؤلاء قلة على اية حال ، وكانوا إذا خلوا بأنفسهم صارحتهم انفسهم بحقيقة أمرهم فأصمتوها خشية ان يطلع احد على خبىء نفوسهم ، أو خشية أن تنم عليهم نفوسهم .. نعم

لقد كان أبناء قرية السلام يخشون من أنفسهم أن تشى بهم أنفسهم .

أمر كمال ألا يغالى أفراد الجماعة فى إظهار مالهم الذى كسبوه من أعمالهم . فقد كان يخشى أن يدل ثراء المظهر على ما تدرؤه الأخصاص والمغارة والظلام عن العيون . ولكن أملا كان يتردد فى نفس الزهار أراد اليوم تحقيقه ، إنه الأمل الذى بثه كمال إلى نفسه حين كان يجتذبهم إلى إنشاء الجماعة .. سعدية .

استأذن الزهار كمالا أن يحقق أمله اليوم فليس أصلح من اليوم ليحقق أمله ، فالزوج قد طلق والمنافس لا يطيق أن يطاوله بالمال ، والطريق معد ولم يبق إلا السير فيه .. أذن له كمال وأعد له ما يقول عن أسباب غناه ، فحفظه ومضى شأنه إلى سعدية التى أقامت ببيت أبيها حتى يبيع أحمد قطنه ، وحتى يبيع أيضا بعضا من قراريطه ويهيىء لها العيش الذى تصبو إليه . وكان أبو سعدية قد مات بعد أن زوجها إلى صالح ، وكانت أمها ضعيفة لا تملك من أمر ابنتها شيئا ، فأصبح أمر سعدية كله بيدها (*)

ــ كيف أنت يا سعدية ؟

ــ أهلا زهار .. يا ترى أنظيف فى زيارتك أم تحمل معك تهمة من التى توزعها ؟

ــ لا .. نظيف والحمد لله .. سمعت يا سعدية أنك ستتزوجين من الولد أحمد ؟ !

ــ وما لزوم ولد هذه ؟

ـــ إذن فأنت ستتزوجين منه ؟!

ـــ ومالـه ؟ هل فى الزواج عيب ؟ !

ـــ لا عيب به إن كنت تختارين من يليق بكِ .

ـــ ومالـه أحمد ؟

ـــ من أجل الفدانين ! ..

ـــ فدانين وعشرين قيراطا .. هل تملكها أنت ! ؟

ـــ لا أملك أرضا ، ولكنى أملك مالا .

ـــ أتسمى هذه القروش التى تنحتها مالا ؟

ـــ مرى انفذ .. وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان .

ـــ من أين لك ؟ لو كنت أكثر جرأة مما أعرفه عنك لقلت انك من جماعة الخير .

ـــ يا ليتنى كنت .. يا ليت ؟

ـــ والله لو دخلتها لخربت .

ـــ يا ستى مالنا ومالهم ؟ .. أجيبى فيما أسالك .

ـــ أجبنى أنت أولا .. من أين لك المال ؟

ـــ شاركت النمرود .. أذهب أنا إلى البلاد ويقيم هو هنا ، وقد أفاد هذا التجارة لأن المخبرين لا يعرفوننى ، فاستطعت أن أبيع صفقة كبيرة .

ورأت سعدية أن كلام الزهار معقول ، وهى تعلم أن التجارة التى يعمل بها تدر الربح الوفير ، وهى ترى أن أحمد يطاولها وإن كانت أعذاره فى المطاولة واضحة لا ريب فيها .. وهكذا رأت ألا تقطع الأمل من نفس الزهار فتضمن زيجة

على أية حال .. فإن لم تتم الزيجة بمن تحبه فلتكن زيجة بمن يحبها ، فقالت فى اهتمام :

ـــ والله طيب يا زهار .. فأنت تكسب كثيرا الآن .

ـــ أكثر مما تحلمين به ، وأضعاف ما سيأتيك به أحمد . وإنك تعلمين أننى أحبك قبل أن تتزوجى من صالح .. لقد أحببتك وطلبت الزواج بك قبل صالح وأحمد . لماذا لم يطلب أحمد الزواج بك قبل صالح ؟

ـــ أتتجاهل ؟ .. ألا تعلم أنه كان حينذاك فقيرا لا يملك شيئا ، فقد كان أبوه لا يزال يحيا ، وكان ـــ كما تعلم ـــ بخيلا فلم يرض أن يعطيه ما يتزوج به .

ـــ ولكننى كنت أحبك أكثر من أى إنسان فى الدنيا ، ألا تعلمين ذلك ؟

ـــ أعلم .. يا زهار ، ولكن أحمد ماذا أقول له ؟

ـــ لا تقولى شيئا ، أما ترين أنه حتى الآن لم يتزوجك .

ـــ معذور والله ، وأعلم عذره .

ـــ وما عذره ؟

ـــ أراد أن يبيع بعض قراريط من أرضه فلم يستطع ، فإنه منذ أخذت جماعة الخير الإتارة عن الفدان الذى باعه عبد الحميد إلى عبد الجليل شيخ الخفراء ، والبيع والشراء قد انقطعا من البلد تماما . وقد حاول أن يبيع فدانا فى السر إلى الحاج إبراهيم ، وتعهد أن يقوم هو بالزراعة إلى أن يكشف ربنا الغم .. الغمة ، حتى لا تعرف الجماعة أنه باع شيئا ، ولكن الحاج إبراهيم كان قد أقسم يمين طلاق ألا يشترى منه ، وعرض

عليه الفدان بأربعمائة جنيه فلم يقبل الحاج أن يشترى .
ـــ هيه .. ولماذا لم يبع القطن ؟
ـــ والله الله أعلم !!
ـــ ولماذا لم يبعه إلى ابى عليوة ، لقد سمعت انه قبض منه العربون .
ـــ الله ، ولد يا زهار ، ستجعلنى اقول لك كل أسرار الرجل ؟ !
ـــ يا ستى وهل بيننا سر ؟
ـــ لقد جعلنى أقسم الا ابوح بهذا السر .
ـــ وهل إذا قلته لى تحنثين بيمينك .. ؟ انا نفسك يا سعدية ، ألم تعرفى هذا بعد ؟
ـــ عارفة يا زهار .
ـــ وصمتت بعض الحين ، ولكنه ابى عليها الصمت .
ـــ هيه .. ماذا سيفعل أحمد ؟
ـــ اخاف يا زهار ان تقول لأحد .
ـــ يا سعدية اتقى الله .. أنا انيع سرا لك .
ـــ لقد أقسم أحمد على المصحف الا يعطى جماعة الخسير إتاوة على قطنه .
ـــ عجيبة .. وما الداعى ؟ اهو الرجل الوحيد بالقرية ؟ لقد باع اغلب الأعيان أقطانهم ودفعوا الإتارة ، أهو أشجع من العمدة أم من الحاج على أم من نور الكحلة ؟
ـــ أراد أن يثبت أنه اشجع منهم جميعا .
ـــ عجيبة .. ولماذا أراد أن يثبت هذا ؟ !

ـــ كان يتكلم معى وجرى الحديث عن الجماعة ، فقال إن البلد ليس فيه رجال وإنهم جميعا نسوان ، فقلت له : وماذا فعلت انت ؟ وعيرته بأنه يمدحهم فى مكان الحاجعلى فأخذته الحمية ، واقسم الا يعطى الجماعة إتاوة ، وان يبيع القطن برغم الجما .. الجماعة .

ـــ هيه .. والله رجل .. وماذا سيفعل ؟

ـــ احذر يا زهار ان تبوح بهذا الحديث لاحد .. إنها حياة رجل وانت المسئول عنها .

ـــ اتشكين يا سعدية .. ؟ إذن فلا تقولى السر .

ـــ سأقوله ، ولكن اقسم اولا الا تبوح به لاحد .

ـــ وحياتك .

فابتسمت سعدية وتابعت حديثها :

ـــ ذهب اليوم إلى المديرية ليتفق مع ابى عليوة على ان يسلمه القطن فى المديرية بعد عد صباحا ، وسيذهب إلى النمايلة ويستأجر منها جملين حتى لا يعرف احد هنا ما ينوى أن يفعله ، وسينقل القطن فى مساء الغد دون أن يحس به أحد .

ـــ ولكن .. الن تعرف الجماعة انه باع قطنه فى الصباح ؟

ـــ إنه هو من سيحمل القطن ويخرج به فى المساء ، ثم يقفل المخزن فلا يعرف احد انه سلم القطن .

ـــ ومن أين عرف ان النمايلة ليس فيها عيون للجماعة ؟

ـــ لن يخبر أصحاب الجمال بما ينوى أن يفعله ، وإنما سيطلب إليهم أن يسلموه الجمال ليردها إليهم فى اليوم التالى لنقل القطن ، وسيضاعف لهم الاجر .

ـ والله لئيم .. النهاية .. انا سأغنيك عن قطنه وقراريطه وكل ماله .. ما قولك ؟

ـ اشوف يا زهار .. أمهلنى اسبوعا افكر فيه .

ـ وهو كذلك يا سعدية .. سيكون أطول اسبوع فى حياتى .. اتركك بخير يا سعدية .

ـ وانت من اهل الخير يا زهار .

★★★

لم يكن الزهار صاحب القلب الوحيد الذى يتصل أمله بجماعة الخير ، وإنما كان هناك قلب آخر اتصل امله بهذه الجماعة .. أو هو فى الحقيقة أمل ظل يراود صاحبه وخشى حين تألفت الجماعة الا يتحقق .. ذلك الأمل الذى ظل يتردد فى قلب وطنية السنين الطوال أن تتزوج من كمال ، والذى ضعف بعض الشىء حين أنبأها كمال أنه صائر إلى الغنى ، والذى ازداد ضعفا حين اهدى إليها كمال الجلباب الأحمر والمنديل ، والذى لا يزال يضعف كلما رأت الأموال تتدفق فى يد كمال . وكلما ازداد ضعف الأمل ازداد تشبث صاحبه به . وفى غمرة من هذا التشبث قصدت وطنية إلى كمال فى بيته شأنها كل يوم منذ تألفت الجماعة ، إلا انها اليوم وفى هذه الغمرة قد انتوت أن تطالبه بأن ينفذ ما وعدها به يوما .

ـ صباح الخير يا كمال .

ـ صباح الخير يا وطنية

ـ هل ستخرج الآن ؟

ـــ لا ، ما الأخبار في البلدة ؟

ـــ كما هي ، يدعو لك بعضهم من لسانه ويدعو عليك جميعهم من قلبه .

فينتفض كمال جازعا :

ـــ أعرفوني ؟.

ـــ لا ، وكيف لهم أن يعرفوك وأنت أمامهم كما أنت تلبس أثواب المسكنة ، حتى إذا خلا بجماعتك مجلسك خلعت الستار وارتددت إلى طبيعتك ، تدبر القتل والخوف والجزع وإصابة أموال الناس بالباطل ؟

ـــ فكيف يدعون لي أو عليّ ؟

ـــ يقولون جماعة الخير .. الست الجماعة ؟

ـــ أعوذ بالله ، أبهذا تصبحينني ؟

ـــ إن لم أقل أنا لك الحق فلن يقوله أحد .

ـــ ومن قال لكِ إني أريد الحق منكِ أو من غيرك ، وعلى كل حال لماذا يدعون عليّ من قلوبهم ؟

ـــ ألم تحرم عليهم أن يبيعوا أقطانهم إلا بالإتاوة ، وفرضت على بهائمهم الإتاوات ، وفرضت الإتاوة أيضا على بيع الأطيان ؟

ـــ كل من يملك أقطانا وبهائم وأطيانا غني ، والفقراء أكثر من الأغنياء .

ـــ من قال لك ذلك .. ؟ من قال إن كل من يملك بهيمة أو قطنا أو أرضا غني ؟ ومن قال إن هؤلاء كثرة ؟ ليس في قريتنا إلا قلة نادرة لا تملك شيئا . وحتى هذه القلة غير راضية عنك ، فالأجراء أصبحوا لا يستأجرون ، وأصحاب الأرض جميعا وقف حالهم ،

ثم هم يقولون إنك فرضت الإتاوات لتأخذ معظمها لك وتعطيهم منها الفتات الذى لا يغنى . .لا يغنى ابدا بعد أن وقف عنهم الخير الذى كان يأتيهم ممن يستأجرونهم .

ـــ والله اصبحت فصيحة ، ولكن كلامك فارغ ، فإن كل من يعمل خيرا فى هذه الدنيا لابد أن يجد من ينتقده . ولابد أن يجد الناس وسيلة ليجعلوا هذا الخير الذى يقوم به صادرا عن غرض فى نفسه غير الخير ، ولذلك يجب أن يعمل الإنسان الخير ولا يهتم بالناس .

ـــ حكم .. والله حكم ، ولكنها للأسف صادرة عن ضال ، أتدعى أن السرقة خير ؟ عجيبة ! يا كمال ارجع فإنى والله أخشى عليكَ إن لم ترجع .

ـــ ومالك انت رجعت ام لم ارجع ؟

ـــ مالى انا يا كمال ؟ .. مالى انا ؟ .. انسيت كل شىء يا كمال ؟

ـــ كلامكَ يثير الغضب والخوف يا وطنية .

ـــ من خوفى عليكَ يا كمالَ ، الا تعلم يا ابن الكلب انه ليس لى فى الدنيا غيركَ .

ـــ اما آن لكَ أن تنتهى عن الشتيمة ، لم اصبح كمالا الذى كنت تعرفينَ .

ـــ نعم انت محقَ ، لم تصبح كمالا الذى كنت اعرف ، واين انا منكَ الآن ؟ انت لص يملأ الدنيا ذعرا وانا وطنية ما ازالَ .

ـــ لا ، انا لا اقصد هذا . ولكن لسانكَ تعود شتمى وانا الآنَ

محترم أمام الجماعة إلا منك ..

ــ وطبعا احترام الجماعة لك يمنعك أن تنفذ وعدك .

ــ وعدى ... أى وعد تقصدين ؟

ــ ذلك الوعد الذى كان الفقر يمنعك من تحقيقه ، ألا تذكره .. ؟ ألا تذكر يا ابن الـ ... نسيت ؟ فأنت تمنعنى من لذتى الوحيدة فى الحياة ... تمنعنى من شتيمتك ..

ــ أى وعد ؟ ، ذكرينى .

ــ والله لا أذكرك به أبدا ، إن كنت لا تذكره فلا جعله الله يتم .

ــ آه ! تقصدين الزواج ؟ وهل هذا يحتاج إلى تذكير يا وطنية ؟ وهل لى غيرك ؟

ــ نعم .. نعم .. اشتغل علىّ أنا الأخرى اشتغل ، كأنى فرد من جماعة الخير .. يا كمال طالما قلت لك إنى بنت حرام وهذا اللف لا ينطلى علىّ ، فأنا أعلم أن لك غيرى ولكن نجوم السماء أقرب إليك منها . وأنا أعلم أنك تصانعنى لأنى أعرف أسرارك جميعا ولأنك تحتاج إلىّ . ولكن اسمع يا كمال ، سأتظاهر بأننى أصدقك لأنى لا أملك إلا هذا التظاهر ، ولكن لابد لك أن تصنع لى سببا مقنعا يجعل تأجيل زواجك منى معقولا .

ــ إن هذا لا يحتاج إلى صنعة ، أخشى إن أنا تزوجتك أن تتجه إلينا عيون الناس ويتساءلون : من أين لكمـــال أو وطنية بالمال ؟ ولكن قولى لى : من هى غيرك هذه التى تجدينها أبعد منى من نجوم السماء ؟

ــ كمال ! ألا تعرفها ؟ ؟ !

ـــ من تقصدين ؟

ـــ ستك درية .

ويسكت كمال لحظة ذاهلا ثم يقول :

ـــ عجيبة !

ـــ وما العجيبة ؟

ـــ أن تفكرى هذا التفكير .

ـــ اهكذا .. لعلى مخطئة .. سأنتظر يا كمال ، سأنتظر يا ابن الـــ ..

وقبل أن تكمل وطنية وصف أبى كمال يطرق الباب فتفتحه وطنية ليدخل الزهار ، الذى ما يلبث أن يقص على كمال ذلك الخبر الذى خرج به من مغامرته الغرامية ، ويقول كمال فى صوت حازم وهو يتهيأ للقيام :

ـــ ادع أفراد الجماعة ، سنجتمع فى بيت النمرود .

— ١٥ —

كان الفجر يطلع على قرية السلام بطيئا شاحبا حين صحا العمد العمدة من نومه ينادى الخادمة أن تحضر إليه ماء الوضوء ، وما كان يفعل حتى سمع صوتا من دون الشباك عاليا أنكره أول أمره ثم ما لبث أن تبينه ، إنه كمال وإن كان صوته قد اكتسى قوة ، وزايله وهن واستعطافة :

ـــ أطال الله عمرك يا حضرة العمدة .

ـــ أهلا أهلا كمال ، أترى الوقت وقتك يا كمال ؟

ـــ إنه وقتى يا حضرة العمدة لم أتقدم عنه ولم أتأخر ..

ـــ خير ؟ ماذا تحمل إلينا من أخبار .. ؟ من زمان لم أرك .

ـــ أخبارى كلها تعرفها ، أصبحت لا أصيب قوت يومى .

ـــ لماذا ؟ ألم تقدم لك فاطمة الفطور ؟

ـــ لا .. ليس هذا ما أقصد إليه ، وإنما انقطعت الافراح وقد كنت أصيب منها ما يقيم الأود أياما قد تصل إلى شهر .

ـــ الله معنا يا كمال .

ـــ يا حضرة العمدة ..

ـــ هيه ... ماذا تريد ؟

ـــ إلى أين أنت ذاهب اليوم ؟

ــ وما شأنك ؟

ــ مجرد سؤال فقط !!

ــ ذاهب إلى المركز ، وهل أصبح لى عمل فى هذه الأيام إلا المركز أروح إليه واغدو ؟

ــ آه !!

ــ ماذا تريد أن تقول يا كمال ؟

ــ لا شيء .

ــ أحس فى صوتك رنة من يريد أن يقول شيئا ، قله .

ــ سمعت أن أنور بك قد جاء من أوربا مساء أمس ، ألا تذهب إليـــه ؟

ــ وماذا افعل له ؟

ــ تهنئه بسلامة الوصول وتسأله أن يبحث لنا عن حـــل لمشكلتنا هذه .

ــ وماذا بيده أن يفعل يا بنى ؟ وما أظنه إلا سيعلم بمصيبتنا ، ولكن ماذا يفعل ؟

ــ يقيم الدنيا ويقعدها .

ــ الدنيا قائمة قاعدة من غير أنور بك ، وأنور بك رجـــل حنبلى لا يقبل إلا العمل القانونى والقانون لا يسعف اليـــوم ، وإنما الذى يسعفنا العمل الحاسم العاجل .. ماذا نفعل بالقانون أمام السلاح يا بنى .. ؟ إن هؤلاء المجرمين الذين سلطوا علينا يعلمون أن القوة هى القانون .. لقد كان لطيفا خليقا أن ينفعنا اليوم ، ولكنه اكتفى بزيارتى ولم أطلب إليه يومذاك شيئا ، معتمدا

على ان المأمور سيسمح لى بترخيص بعض الأسلحة ولكن المأمور رفض .

فسأل كمال وعلى فمه شبح ابتسامة :

ـــ ولماذا لم تذهب إلى لطيف ثانية ؟

ـــ ذهبت ..

ـــ فماذا عمل لك ؟

ـــ قال .. قال كلاما ولم يعمل شيئا : « انا تحت أمرك .. سأكلم المأمور .. وأبلغ الداخلية » . ومعنى هذا أن أذهب انا فى داهية ويبقى المجرمون .. وحين قلت له إنى أريد رجاله لأحمى بهم القرية ، قال إن رجاله لا يعملون لغيره .

وازدادت الابتسامة اتساعا على فم كمال فقد عرف كل ما كان يريد أن يعرف .. العمدة لا يريد أن يلجأ إلى الداخلية ، فهو لن يذهب لانور بك لأن هذا لن يفعل شيئا إلا الالتجاء إلى الداخلية ، وبهذا الخوف نفسه امتنع المأمور عن الاتصال بالداخلية . والعمدة والمأمور كلاهما يرجوان من أعماق انفسهما ان يظل انور بك جاهلا أمر جماعة الخير بعض الوقت حتى لا يعلم الرؤساء بالخيبة التى يعانيان منها . أما ما قاله لطيف بك فهو لا يعدو تنفيذ الاتفاق الذى تم بينهما ، حين دعا منصورا فرافقه إليه كمال .

وقد كان لطيف خليقا أن يجيب أى رجاء للعمدة الذى يريد أن يصطنعه للانتخاب القادم ، إلا أن يكون هذا الرجاء حربا على قوم ضمهم هو إلى رحابه .. اى رجاء إلا هذا ! فقد كانت

حياته اغلى من الانتخـــاب ، ولا يحب أن يؤلب المجـــرمين على حياته .

وما كان كمال يريد إلا معرفة هذه الأمور وقد عرفها ، فقـــد شـغله مجيء أنور بك ، وخشى أن يقصد إليه العمدة فيضيق عليه الخناق .. وقد كان كمال يخشى أن يضيق عليه الخنـــاق وهو — بعد — لم يثبت دعائمه ؛ ولم يرسها على العمد التى يبتغيها لها .

دارت بذهن كمال هذه الأمور وهو يستأذن العمدة أن يدخل إلى الدوار ليصيب فطوره ، وليصيب أيضا ذلك الشيء الذى ما زال يهفو إليه .. نظرة من درية .

★ ★ ★

اقبل المساء على القرية فاوى القوم جميعهم إلى البيـــوت يذودون عن انفسهم ذلك الجو القاتل الذى شاع فى القرية ، والتقت أعين الأزواج والأولاد على نور المصـــباح المتهـــافت فأحست القلوب فى أضلاعها رجفة ، هى هزة الخوف من الغـــد المجهول ، فما يعلم أحد بماذا يطلع عليهم الصباح . وهى هزة الحب اغتلى فى افئدتهم .. الحب للحياة التى يحيونها لا يريدون ان يفارقوها مهما تلاقهم بهذا العنت الذى تلاقيهم به ، والحب .. حب الـــزوجات الأزواجهـــن وحب الأزواج لزوجاتهم ، وحب الأبناء لوالديهم وحب الوالدين لأبنائهم ، يبلغ أقصاه فى فورة الأحداث الراعدة حواليهم . والحب .. حب الجميع لله الكبير أملهم الذى لا أمل لهم غيره ، وملاذهم الذى لا ملاذ لهم إلا هو ،

ومن خلال هذه الخيوط الناعمة القوية من الحب، ومن خلال هذه النظرات الصامتة العميقة ، يستمد القوم بعض طمأنينة تسكن إليها نفوسهم المضطربة بعض السكون .. بعض سكون يستطيع أن يصحبهم إلى نوم ، وإن يكن نوما مفزعا ينتظر النذير أو ينتظر الكارثة .

فإن مررت ثمة بالقرية فلا نيران ولا سمر ، ولا جماعات تتحلق ولا أفراد تروح أو تغدو ، إنما هم الخفراء فى جلابيبهم علقوا على اكتافهم بنادقهم لا يستعملونها ، فقد استعاضوا عن الأعيرة فى الهواء بكحة يسعلونها يسلمها خفير إلى خفير . حتى الضفادع والصراصير ، حتى الكلاب النابحة احست بما اصاب الناس فهى فى صمت مطبق ، فإن صاح احدها لم يجد جوابا فيعود إلى صمته .. إن مررت — لا قدر الله لك أن تمر — لتشوقت إلى هذا الضجيج الذى كانت الضفادع والصراصير والكلاب تثيره فى القرية .. ولتمنيت — وان كنت تكره أصواتها — أن تعود الضفادع إلى النقيق والصراصير إلى الصفير والكلاب إلى النباح ، ولرأيت فى امنيتك هذه املا ضخما ترجو أن يتحقق وإن أصاب السمع منك بما لا تحب .. نعم .. وإن ..

حتى الضياء الخافت الذى كان يتسرب من البيوت قد اقتلت دونه الواح غليظة من خلف النوافذ ، فهو ثمة حبيس مع الناس لا يرى إلى القرية ولا يشتهى أن يراها .

ليس فى القرية صوت وليس فى القرية نار وليس فى القرية نور ، ولكن ضياء فى السماء يأبى أن يترك القرية فى سوادها

الصامت الحزين ، فثمة قمير صبى يطل على القرية بشعاعات تغشاها ، فهى فى زرقة من الضياء . فإن مررت ـــ لا قدر الله لك أن تمر ـــ لأمكنك أن ترى طريقك وأن ترى أيضـــا رفيق طريقك .

فى المساء الأزرق ، وفى هذا الســـكون الهاجع ، خـــرج أحمد أبو خليل متسللا متشحا بالســـواد من حظيرة بهائمه ، يسحب من خلفه جمـــلين وقد حمـــل على كل منهما كيسين من القطن ، وسار بهما وجهته إلى المدينة يريد أن يبلغها فى الصباح .

وفى هذا المساء نفسه كان فتحى خفير العمدة ينتظر العمدة ومعه حماره عند القطار ، تنفيذا لأوامره التى أرسلها فى قطـــار الظهيرة الذى كانوا ينتظرونه فيه ، تلك الأوامر التى تفيد أن المأمور قد أخره وأنه قادم فى آخر قطار يصل إلى محطة بلدتهم .

والذى يريد أن يخرج من القرية قاصدا إلى المدينة لابد أن أن يمر أولا بطريق زراعى تحف به الحقول من الجانبين ، وقد كانت الحقول فى تلك الآونة مغطاة بالذرة لم يزلها أصحابها عن الأرض .

والذى يريد أن يقصد من المحطة إلى القرية لابد له ان يمر بطريق تحده الصحراء من جانب ، والطرف الآخر من حقول الذرة نفسها التى تحف بطريق القرية من جانب آخر .

كان أحمد إذن مـــترجلا فى طريقـــه إلى المدينـــة ووراءه الجملان ، وكان العمدة راكبا الحمار فى طريقـــه إلى القـــرية ووراءه فتحى .

وفجأة فى بهيم الليل سمع العمدة عيـــارا ناريا ينفجر من

قريب ، فانتفض العمدة عن حمـــاره وانتفض الحمار من تحت العمدة ، وجرى فتحى إلى الذرة يختبىء بها ، وأسرع العمدة يجر الحمار مهرولا إلى أعواد الذرة يرجوها أن تحميه . ومن قريب سمع العمدة حفيف ثوب وأقـــدام تقـــترب ، ثم ما لبث صاحب الجلباب والأقـــدام أن مر قريبـــا من العمـــدة وفتحى والحمار ، وقد كتم جميعهم أنفاسهم حتى عبرهم المجهول ، وقد أجابت الذرة رجاء العمدة فحمته من الأعين . وخرج صاحب الجلباب من الذرة إلى الطريق يحمل بندقيته فى يده متهيأ لإطلاقها عند أول بادرة ، ويتلفت يمنة ويسرة فيراه العمدة من مخبئه ، ويراه فتحى ويعرفانه .. ويخترق الدغراوى الطريق إلى الصحراء ، وما هى إلا لحظات حتى تغيبه الصحراء فى جوفها ، ويصحو العمدة من ذهوله المذعور :

ـــ فتحى ؟

ـــ ن .. ن .. نعـ .. نعـ .. نعم .. نعم يا حضرة العمدة .

ـــ أين بندقيتك ؟

ـــ م .. م .. معى .

ـــ وماذا تفعل بها ؟

ـــ إنها .. إنها لا تصلح .. ينطلق منها العيار مرة ، وينحبس فيها مرات .. خشيت أن أستعملها فينتبه إلينا الدفـــ .. الرجل فيقتلنا يا حضرة العمدة .

كان العمدة قد ألقى سؤاله وسار مخترقا الذرة إلى طريق القرية ساحبا وراءه الحمار ، ساعيا خلفهما فتحى يلقى باعتذاره

الطويل هذا . ولم يبال العمدة من جواب فتحى شيئا ، فهو يعلم أنه هو أيضا كان عند الواقعة لا يملك من الشجاعة ما يأمر به فتحى أن يضرب . سار العمدة يهرول فى الذرة لاهث الأنفاس حتى بلغ الطريق ، فراح ينظر حواليه فرأى عن يساره الجملين عائدين طريقهما إلى القرية يحملان القطن فلم يحفل أمرهما ، وراح يجيل النظر مرة أخرى فرأى منه عن قريب جثة ملقاة ، سارع إليها وركع عند وجه صاحبها ثم رفع رأسه إلى فتحى .

ـــ استدع الناس يا فتحى ليحملوا جثة أبى خليل ، واطلب إلى عبد الهادى أن يبلغ النيابة ، وحذار يا فتحى .. حذار أن تخبر أحدا أن الدفراوى هو القاتل .. حذار وإلا قتلتك .

ـــ وهل ترانى أجرؤ على القول يا حضرة العمة .. ؟ وهل ترانى أجرؤ ؟ !

★ ★ ★

بلغ الدفراوى المغارة وما إن دخلها حتى عاجله الزهار :

ـــ هيه يا منصور !

ـــ تم المطلوب .

ـــ سبع يا بنى والله سبع .

وقطع عليه كمال اندفاعه :

ـــ اهجع يا زهار .. أترانا هازلين ؟ . هل رآك أحد يا منصور ؟

ـــ لا .

ـــ هل أنت متأكد ؟

ـــ كل التأكيد .

ـــ فهيا إذن إلى بيت النمرود .. هلم يا جما ... هـلم يا رجال .

وخرجت جماعة الخير من مخبئها ، وقصدت إلى بيت النمرود دائرة حول القـرية غير متخـذة إليها الطـريق الزراعى ، حتى إذا بلغوا حدود القرية من عند طريق المحطة اخترقوا الذرة إلى بيت النمرود راسا ، وظل الدفـراوى ونور والـزهار فى الذرة . وخرج كمال منها إلى بيت النمرود وطرق الباب طرقة عرفها النمرود الذى كان ينتظرهم هناك ، وما لبث البـاب ان فتح ودخل كمال ، ثم تسلل الثلاثة الآخرون الواحد بعد الآخر .

واخذ كمال مكانه من الأريكة ، وسرعان ما اشتعلت النيران واديرت الجوزة ، ولكن قليلا ما تدور فقد كان اليوم مليئا بالترقب ، ويريد كل منهم ان يهجـع إلى مـنزله ، فمـا يلبث كمـال ان يقـول :

ـــ سأنوم للنوم .. الا تقومون انتم ايضا ؟

ـــ إى والله .. لقد وجب النوم ..

وانفضوا عن مجلسهم واتخذ كل منهم وجهته إلى بيته .

دخل الدفراوى منزله وهم ان يخلع ملابسه ، ولكنه يسمع خارج بيته ضجيجا عاليا فلا يحفله ، ظانا ان القوم يلغطون بحادث الليلة . ولكن الضجيج يقترب فيوشك ان يوليه اهتماما ، ويتسمع فيسمع اسمه ، فيسارع بفتح الباب يريد الهرب ولكن لات حين مهرب ، لقد كان الضجيج قد بلغ بلب بيته واحاط به الجنود وخفراء القرية .

— ١٦ —

سارت سيارة المأمور بالدفراوى تحمله إلى السجن متهما بتهمة القتل ، منكرا لهذه التهمة مبالغا فى الإنكار ، ولكن إنكاره لم يمنع العمدة أن يفرح لهذا النصر الضخم الذى اصابه ، فإن الحوادث التى وقعت فى تلك الفترة البغيضة من الإرهاب لابد أن تنتهى اليوم . بل إن العمدة كبير الأمل أن يعرف أيضا جماعة الخير فردا فردا ، فهو يعتمد على المأمور أن يحمل الدفراوى على الاعتراف .

وبهذا الفرح والأمل ، وفى تفكير عميق ، وقف العمدة يقيم صلاة الفجر الحاضر فقد استمر التحقيق إلى الصباح ، وانتهى العمدة من صلاته فى شرفة الدوار وانتقل إلى بيته ، فاستقبلته زوجته التى ظلت ساهرة تنتظره وتجيب أوامره التى يرسل بها إليها .

ـــ هيه .. خبر يا شيخ زيدان ؟

ـــ خير إن شاء الله .. انكشفت الغمة والحمد لله .

ـــ الحمد لله على كل شيء .. هل اعترف منصور ؟

ـــ لا لم يعترف ، ولكن كيف له أن ينجو وقد شاهدته بعينى أنا وفتحى ، وأثبتنا هذا فى محضر النيابة ؟

ـــ وهل عثروا على السلاح ؟

ـــ هذه هى المشكلة .. لقد فتشنا بيته وبيت صاحبه النمرود ولكنا لم نجد شيئا ، وارجح ان الولد له صديق فى الصحراء أودع عنده البندقية .

ـــ فانتبه انت لنفسك يا شيخ زيدان .

ـــ لقد خلصنا منهم يا شيخة .. فما اعتقد إلا هذا كان زعيمهم ، وما أظن ان تقوم لهم قائمة بعده أبدا .

ـــ ومن ادراك يا شيخ زيدان .. ؟ ! إننى لم ار فى حياتى عصابة كافرة مثل تلك ، فبحق درية يا شيخ وبحقى إلا ما احتطت لنفسك .

ـــ توكلى على الله يا حاجة .. توكلى على الله ، لقد ثبت كلامى فى المحضر ولن تنفعهم إصابتى فى شىء .

ـــ ومن يدرى ؟! . هؤلاء قوم لا يعرف احد نواياهم !! ..

ـــ توكلى على الله .. هلم إلى النوم فإنى أحس جسمى لا يكاد يستقيم ، وايقظنى عند الضحى لنمشى فى جنازة احمد ، الله يرحمه .

★ ★ ★

صحا العمدة قبيل الضحى ، فوجد القوم ينتظرونه بالخارج ليباركوا له هذا النصر الذى أحرزه ، وليصحبوه فى تشييع الجنازة . قال الحاج على :

ـــ الحمد لله يا حضرة العمدة .. غمة وانزاحت .

ـــ الحمد لله يا حاج على ، ولو انك كنت كثير المديح لهذه الغمة .

ـ يا حضرة العمدة ؟ كنت اخشى على نفسى وعلى قوتى .. داروا سفهاءكم يا حضرة العمدة .

فصاح الشيخ رضوان فى غضب تعود أن يفتعله حتى ليبدو صادرا من صميم فؤاده :

ـ دع الحديث جانبا يا حاجعلى ، فما اظن النبى يحض على النفاق .. كنت تستطيع أن تسكت على الاقل .

وقبل أن ينطق العمدة كان الحاج على قد شذره بنظرة دهشة عاجبة :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله يا شيخ رضوان .. عجيبة ..

وقبل ان يجيب الشيخ رضوان سارع العمدة قائلا :

ـ إى والله عجيبة يا شيخ رضوان .

ـ اى عجيبة يا حضرة العمدة .. اى عجيبة ؟

ـ عجيبة ، لانك كنت أكثر مديحا للجماعة من الحاجعلى نفسه .

ـ اعوذ بالله يا حضرة العمدة .. انا ؟ !

فقال الحاج على وهو محملق فى الشيخ لا يزال :

ـ عجيبة !

وقال العمدة :

ـ نعم انت .

ـ انا يا حضرة العمدة .. انا الرجل المصلى الذى اخشى الله واتقى غضبه .. انا امدح هؤلاء القتلة السفاكين اللصوص قاطعى الطريق .. انا كنت امدح فقط انهم يقدمون للفقراء المعونة .. كنت اذم القتل والسرقة وامدح الكرم ومعونة الفقراء .

ـــ سبحان الله يا شيخ رضوان ، الم تكن تدرك أن إعطاء الفقراء كان لتملقهم .. ولتجد الجماعة مبررا أمام القرية لارتكاب ما ارتكبته ؟

ـــ لا والله يا حضرة العمدة ، لم أكن منتبها لهذا .

فقال الحاج على وهو محملق لا يزال :

ـــ عجيبة ؟ !

وقبل أن يتكلم أحد صعد إلى الشرفة الشيخ عبد الودود منهوك القوى بادى الهزال شاحب الوجه ماخوذا ، ترك عليه الحادث آثار هلع لا يزايله ، فقام إليه العمدة :

ـــ مرحبا بك يا شيخ عبد الودود .. الحمد لله على سلامتك .

ـــ سلمت اليوم فقط يا حضرة العمدة .. علمت اليوم بما كان فأحسست روحى تعود إلى جسدى هسونا ، فقمت إليك ابارك لك بهذا النصر .

وقدم الشيخ حسن مع ابنه فخرى ، وكان الشيخ حسن يبدو وكأنه قفز من الحياة سنين عدة ، واستقبل العمدة الشيخ حسن وابنه وفى عينيه حب لهما عميق . وما كادا يجلسان حتى طلب العمدة إلى فخرى أن ينتقل إلى جانبه وهمس فى أذنه :

ـــ فخرى ، أنا اريدك فى حديث خطير قد يغير مستقبلك ، ولكن لابد لك أن تقبله .

ـــ وما هو يا حضرة العمدة ؟

ـــ لا .. ليس الآن .. ولكن عندما يحين الوقت ، سآتى إليك انا فى القاهرة واخبرك به .

ـــ امرك يا حضرة العمدة ..

ـــ ولكن لا تخبر احدا .. لا تخبر أحـــدا على الإطلاق ، اكتم هذا الحديث حتى عن أبيك .. فإن سألك فيم كان حديثى ؟ فقل له إننى كنت أريدك أن تحضر معى عند المحامين الذين سأوكلهم ليترافعوا عن والدة أحمد أبى خليل وإخوته .

ـــ امرك يا حضرة العمدة ، وإن كنت انا الآخر اريدكَ فى شيء خطير ، ولكن ليس الآن على أية حالْ .

ولما رأى الشيخ حسن أن الهمس قد طـــال بين فخـرى والعمدة كاد يدرك أن العمدة يحادث فخرى فى أمر درية ، ولكنه استبعد هذا الظن فما كان يعتقد أن العمدة يحادث الفتى دونه فى هذا الشأن . كما كان يرى أن الوقت غير مناسب ، ولكنه لم يتعمق الفكر فى هذا الشأن فقد كان يعلم أن ابنه سيخبره عن تفاصيل الحديث .. قال الشيخ حسن :

ـــ اظن أن الوقت قد حان يا شيخ زيدان .

فقال الشيخ رضوان :

ـــ نعم أظن فها هى ذى طبلة كمال تعلو مرة ثانية .

وقام الجميع إلى الجنازة يشيعونها يتقدمهم العمدة والشيخ حسن ، تعانقت أذرعهما واعتمد كل منهما على صاحبه .

★ ★ ★

أقبل المساء على قرية السلام ، وانتظر القمير بعض الحين ثم حبا إلى السماء واهنا ، يرى بعضهم وهنه من الصغر فساقاه ما زالتا غضتين ، ويرى بعض آخر وهنه من الشيخوخة ومن طول ما جاب السماوات منذ خلقَ الســـمٰاوات ، ويراه بعض

آخر واهنا لا يدركون لماذا ولا يفكرون . ويراه الباقون طالما في السماء فلا يرون وهنه ، وإنما كل شانهم منه أن يطلع فينظروا إليه او لا ينظروا ، فما يعنيهم في شيء .

— إلا أن قرية السلام لم تفكر في شيء من هذا ، فقد ذهب الرجال إلى مأتم أحمد متفرقين وعادوا جماعات ، ثم تفرقوا ثانية إلى بيوتهم فأقفلوا أبوابها على أنفسهم بالقصور الذاتي ، فمع أن الطمأنينة قد عاودتهم شيئا إلا أنهم لا يزالون يقفلون الأبواب ويحكمون الرتاج ويذودون الضياء عن القرية بألواح الصلف الغليظة التي يضعونها على نوافذهم .

وحينئذ طلبت درية إلى أمها أن تخرج لتعزي والدة أحمد أبي خليل في مصابها ، وقد كانت الأم تريد أن ترافقها ولكن سهر الأمس وكبر السن قعدا بها في ليلتها تلك ، فهي تقول لابنتها :

— أتظنين أن الرجال قد انفضوا عن المأتم الآن ؟

— اظن ذلك ، فهم في هذه الأيام يبكرون في النوم .

— أخاف أن تذهبي وهم لا يزالون هناك فيغضب أبوك ؟

— إذا رأيت الرجال لا يزالون قاعدين عدت .

— حسنا فاذهبي إذن ولكن لا تتأخري . خذي معك فاطمة وعبد الهادي الخفير .

— أمرك يا أم .

وخرجت درية في موكبها الصغير قاصدة بيت أحمد أبي خليل ، واخترق الموكب الظلام الأزرق والسكون المطبق الذي

تعانيه القرية ، إلى أن بلغ جرن القرية حيث اتخذ كل فلاح مكانا يضع فيه روث بهائمه فى شكل كومة ليجعل منه سمادا لأرضه ، وتتقارب هذه الأكوام حتى لا يسمح الطريق بينها لغير رجل واحد أن يمر . ولا حارس ثمة على هذه الأكوام ، فكل فلاح يعرف كومه ولا يعدو أحد منهم على الآخر .

كان على الموكب أن يخترق هذه الأكوام إلى بيت أحمد ، فتقدم عبد الهادى وتبعته درية فغاطمة . وما إن توسط هـذا الطابور أكوام السماد حتى تواثب على ثلاثتهم ثلاثة شـخوص ملثمين بينما وقف رابع يرقبهم ، ويضع كل من الثلاثة إحدى يديه على أفواه كل من عبد الهادى ودرية وفاطمة ، ويضعون فى جنب كل منهم مسدسا . وتتم العملية فى ومضة عين ، ثم يقول الشخص الرقيب وهو ملثم :

ـ كلمة واحدة أو صوت .. تنطلق هذه المسدسات جميعا . هيا تحركوا معنا .. سترتفع الأيدى عن أفواهكم فحذار أن يسمع لكم صوت .

ويسير الجمع اثنان يتبعان اثنين آخرين ، وفى آخر الطابور المزدوج يسير كمال .

ويخترق الموكب الطريق الزراعى المحفوف بالذرة ، ويبلغ الطريق الرئيسى الذى يتفرع إلى طريقين أحدهما إلى المدينة والآخر إلى المحطة ، فيميلون إلى طريق المحطة ، ثم ما يلبثون أن يعبروا الطريق إلى الصحراء . وما هى إلا خطوات قليلة ، حتى يبلغوا كثيبا ضخما من الرمال يدورون حـوله فيظالعهم

كوخ كبير ، ويقف كمال على بابه ويقول لعبد الهادى وفاطمة :

ـــ اذهبا انتما إلى العمدة وقولا له إن ابنته لن ترجع إليه حتى يغير اقواله التى قالها فى المحضر .. فإما أن يبرأ منصور او تموت الابنة .

وتشهق فاطمة ، فيعود كمال إلى الحديث وقد غير اللثام صوته :

ـــ اخرسى .. اذهبى واحذرى أن يصدر عنك صوت او كلمة حتى تبلغى العمدة . احذرى وإلا فانت تعرفين ما يمكن أن نفعله .. هيا .

وتجر فاطمة عبد الهادى ويسيران طريقهما إلى العودة ، بينما يدخل كمال إلى الخص فيخرج منه حصانه فيركب ويضع درية امامه ويركب الآخرون خيولهم وتركض بهم الخيل إلى المغارة .

يدخل كمال درية إلى المغارة المظلمة فيضىء مصباحا ، ويكبل درية بالحبال ويضع على فمها منديلا ، ويخر إلى إخوانه فيسأله الزهار :

ـــ هيه .. أننام جميعنا هنا ؟

ـــ هلْ جننت !! .. أما كفانا اننا لم نذهب إلى المأتم اليوم ؟ .. لابد لكم أن تظهروا فى القرية الليلة وتناموا فى بيوتكم .

فيقول الكحلة :

ـــ ومن يحرسها إذن ؟

فيقول كمال :

ـــ انا احرسها .. فإن احدا لن يبحث عنى . اذهبوا انتم

وابقوا على المسدسات معكم حتى مساء الغد ، وتعالى انت يا نور فى الصباح لتتولى حراستها .. واحضر لنا معك بعض الطعام .

ـــ لماذا ؟ ألم تحضر وطنية طعاما ؟

ـــ لا لم اطلب إليها أن تفعل ، لأنى لم اخبرها بعملية الليلة .

ـــ وهو كذلك .. السلام عليكم .

ويمضى القوم بعد أن يودعوا المغارة خيولهم التى استخدموها لاول مرة ، والتى ملأهم الزهو باستخدامها . ولـــولا أن كمالا خشى أن تعيقهم درية فى المسير فيبطئوا ويلحق بهم أهل القرية لما استخدموا الخيل فى ليلتهم تلك ، فقد كانت معدة للعمليات خارج القرية لا داخلها .

مضى القوم ، وجلس كمال على باب المغارة يفكر فى أمره وامر درية .. ويتيح بجلوسه لدرية أن تسترد انفاسه اللاهثة ونفسها الجازعة . لقد طالما تمنى أن يخلو إلى درية ، ولكنه لم يتمن أن تكون الخلوة ناتجة عن اختطاف ، وقاصدة إلى تهديد ..

قام كمال فدخل المغارة ملثما ـــ لا يزال ـــ فأزال عن فم درية المنديل ، ثم ابتعد عنها قليلا واتخذ لنفسه مجلسا أمامها .. وينظر إليها كمال طويلا ثم ما تلبث أن تنحدر من عينه دمعتان احست عيناه بهما حارتين ، فهما لم تعرفا هذه الدموع منذ كان طفلا لا يذكر متى دمع أو بكى . وكفكف كمال دمعه خفية ثم قال لدرية :

ـــ لا تخافى .

ـــ أنا غير خائفة .. أنا مؤمنة ، وما فى علم الله كائن .

ـــ ونعم بالله ..

وانقطع الحديث حينا ، ثم قال كمال بعد أن استجمع نفسه :

ـــ من أنا ؟

ـــ قاتل .

ـــ سامحكَ الله .

ـــ اطلب إليه أن يسامحكَ أنت .

ـــ علام ؟

ـــ ألا تعرف ؟ .. على كل ما جنيت . على النفوس التى قتلتها والقلوب التى أرعبتها ، اطلب إليه أن يسامحكَ ـــ على الأقل ـــ من أجل ما تفعله الآن بأبى المسكين حين يعلم أننى رهينـــة عند سفاك .

ـــ هذا عملى .. اقتل الفرد فى سبيل الجماعة .

ـــ أيها السفاكَ .. وهلْ الجماعة إلا أفراد !!

ـــ لكل رأيه .

ـــ بل إن كل إنسان يشكل منطقه على هواه .. حتى القاتلْ اللص السفاك ، حتى أنت تخلق لنفسك منطقا .

ـــ لم تجيبى .

ـــ علام ؟

ـــ من أنا ؟

ـــ لقد أجبت ، قاتلْ لص .

ـــ فما اسمى ؟

ـــ أيا يكون اسمكَ فإنه لن يستر اسمكَ الحقيقى .. قاتلْ لص .

ـــ بل إن لى اسما .. ولى معك بالذات تاريخ طويل .

ـــ معى أنا !!

ـــ نعم .. منذ أنت طفلة صغيرة وأنا صبى كبير .

ـــ فأنت من البلد ؟

ـــ منذ كنت تلعبين مع اترابك فاقف منكم بمرصد ، أناولك الكرة إن ذهبت بعيدا ، واقيم لكم ما تشاءون أن اقيم لتلعبوا به وتلهوا .

ـــ من انت ؟

ـــ أنا ذلك الذى كنت أكبر جماعتكم .. لا اشارككم اللعب وإنما أخدم لكم كل لعبة تقومون بها .

ـــ من ؟

ـــ أنا .

ويرفع كمال اللثام عن وجهه فتغوص درية فى أعماق صمت ذاهل حيران ، لم تقل غير كلمة واحدة : « كمال » ذاهلة منزعة ، غير واثقة مترددة ، تنعم النظر واهمة أنها فى حلم بغيض . ويقول كمال :

ـــ نعم كمال .

ـــ لماذا ؟ .. لماذا فعلت بنا هذا ؟ !

ـــ لم اقصد إليكم .. إنها فكرة قديمة حان موعدها فنفذتها .

ـــ لماذا يا كمال ؟ !

ـــ كنت ابحث عن مكان لى فى البلدة فلا أجد .. وكنت أطيل النظر إلى نفسى فى المرآة فقد كنت احس ان احدا لا يرانى مطلقا ، فكنت أعزى نفسى بأن أرى أنا نفسى .. كنت لا شىء

فى قريتكم واردت أن أصبح شيئا . كنت قطعة من الهمل لا تلقى حتى الإهمال ، فقد كنت أقل من أن يهملنى القوم .. أعددت الخطة فأصبحت على ما ترين .

ـــ ويحك ! لقد كنت كما وصفت ، وأقسم لقد صرت إلى شر مما كنت .. ويلك ! لقد أعددت الخطة لتنحدر إلى حضيض كنت بالنسبة إليه فى القمة .. ماذا فعلت بنفسك يا كمال ؟

ـــ صرت سيدا .

ـــ على عصابة .

ـــ أصبحت آمرا فيؤتمر بأمرى .

ـــ لأن بيدك سلاحا .

ـــ أصبحت غنيا .

ـــ لأنك لص .

ـــ أحس نفسى قويا .

ـــ لقد كنت أقوى .

ـــ وفيم كانت قوتى ؟

ـــ فى هدوء ضميرك .

ـــ لم يكن لى ضمير .. وليس لى اليوم .. أنا لم أعرفه يوما فآسى عليه .

ـــ أيها المسكين تحاول أن تهرب من الأيام .. لن تستطيع .

ـــ لقد استطعت .

ـــ بل لن تستطيع .

ـــ سترين .

ـــ لا حول ولا قوة إلا بالله .

ويرتجف كمال وكأنه يسمع الحوقلة لأول مرة ، ثم يرين عليهما صمت طويل تقطعه درية :

ـــ ولماذا اختطفتنى .. امن اجل منصور ؟

ويتردد كمال قبل ان يقول :

ـــ نعم .

ـــ ولماذا كشفت لى عن نفسك ؟

ـــ لانى أعلم انك لن تشى بى ، ولأنى لا انوى أن أضايق العمدة بعد اليوم ، وساقول للجماعة إنك عرفتنى فأقسمت الا تبوحى بسرى إلا إذا انسانت إلى ابيك ، وبهذا ابعدهم عنه .

ـــ إذن فانت لا تنوى ان تتوب ؟ !

ـــ اتوب عن ماذا .. انا لن اضايق اباك فقط ومن اجلك .. لقد أصررت على ان آخذ منه الإتارة حتى اخيف الآخرين ، اما بعد اليوم فلن يصيبه منى شر ابدا ، وعلى كل حال فانت قد عرفتنى ولم تعرفى من معى ، وقد يصيبون اباك بشر إن انت افشيت سرى .

ـــ فلماذا لم ترسل إلى ابى تهدده بأن تقتله او تقتلنى ، او بأن تحرق زراعته او بيته بدلا من اختطافى ؟ !

ـــ الوقت يخيفنى .. اخاف الا يستطيع منصور احتمال السجن فيشى بنا جميعا .

ـــ آه !

ويعود الاثنان إلى الصمت ثانية ، ثم يقول كمال :

ـــ هذا ما اقنعت به زملائى ، اما الحقيقة .. الحقيقة اننى رغبت فى ان اجلس منك هذه الجلسة .. وان اقول لك ..

ـــ حذار .

ـــ اتحرمينني حتى من قولها ؟ !

ـــ واى فائدة تجنيها من قولها ؟

ـــ انت هنا معى .. ونحن وحدنا .. إن لم اقلها لك الآن فمتى ؟ ..

ـــ لن تقولها ابدا .. ولن اسمعها .. لن اسمعها حتى وإن قلتها .

ويقف كمال وهو يقول يائسا مستخذيا :

ـــ انت محقة .. انت محقة يا ستى درية .. تصبحين بخير .

ويخرج كمال إلى باب المغارة فيجلس إلى الارض ، وقد التف بعباءته والقى بنظره إلى الافق البعيد .

★ ★ ★

ومع الفجر يأتى نور ليأخذ مكان كمال ، فيمضى كمال إلى بيته فيجد وطنية تنتظره ..

ـــ أين كنت ؟

ـــ وما شانك ؟

ـــ اختطفت درية ..

ـــ ومن ادراك ؟

ـــ عرفت .

ـــ وماذا تريدينني أن افعل ؟ . اسكت حتى يذكر الدفراوى اسماءنا ونذهب فى الحديد .

ـــ امن اجل هذا اختطفتها ؟

ـــ هل جننت ؟ .. إن لم يكن من اجل هذا فلماذا ؟

ـــ حب قديم كان يائسا ، ولعل أملا يداعبك فيه اليوم ؟

ـــ يا شيخة .. وحياة والدك .. أهذا وقته ؟ !

ـــ فمتى الوقت ؟ .. طبعا وأين أنا الآن وقد قضيت ليلة معها فى المغارة .

ـــ اسمعى يا وطنية .. أنا يا بنتى ـــ مهما أفعل ـــ لن أزيد عن كمال الذى عرفته .. كمال الذى كان حتى أمس تأمر خادمتها أن تقدم له فضلة طعام الخدم .. كمال الذى ظل طول عمره خادما عندهم ، أو مستجديا على بابهم . أفهمت ؟ .. أفهمت ؟

وفهمت وطنية تماما .. فهمت أن كمالا عرف هذا جميعه من ليلة الأمس ، وفهمت أن كمالا حين واجه درية منفردين فى المغارة هو السيد الآمر وهى المطيعة المنفذة ، لم يستطع كمال إلا أن يجد نفسه كمالا المستجدى وإلا أن يجد درية السيدة الآمرة .. لم يستطع كمال وهو فى مأمن من الوحدة ، وفى عزوة من السلاح ، إلا أن يكون كمالا الطيال فى القرية أمام درية بنت العمدة . فهمت وطنية هذا فقد كانت تجيد الفهم .. فهى تقول لكمال :

ـــ وماذا تنوى أن تفعل بها ؟

ـــ والله لا أدرى .. الأمر الآن بيد العمدة .

ـــ أتقتلها ؟ !

وهب كمال جازعا :

ـــ أقتلها !!

ـــ فماذا تنوى أن تفعل ؟

ـــ لا أدرى .

— ١٧ —

تلقى العمدة النبأ من فاطمة وعبد الهادى ، فالقى به فى بحران من الاضطراب والذهول والحيرة والجزع والثورة .. ابنته فى يد العصابة وأقواله فى المحضر . لا سبيل له إلى ابنته ولا سبيل له إلى المحضر .. ماذا يفعل ؟ .. وتصيح به زوجته :

ـــ اسرع .. اسرع إلى المركز وغير اقوالك .

ولا يجيب العمدة وقد اختلط صوت زوجته فى ذهنه بخوالج قلبه ، فما يدرى أهو صوتها أم صوت من أعماقه ؟ فما يلبث أن يغمغم وكأنما يحادث نفسه :

ـــ ومن يصدقنى ؟ .. لقد ثبتت أقوالى وانتهى الأمر ، إنا لله وإنا إليه راجعون .

وتعود الزوجة إلى الإلحاح ، ويظل هو ساهما مطرقا يقلب الأمر على كل وجه له . إنه لو قبل أن يطيع زوجته ويجعل من نفسه كاذبا متعلقا بخيط واهن من الأمل ، فمن لفتحى الخفير ، ومن لهذه القرية التى مرغت جبينها منه ومن فتحى انهما رأيا منصورا وتعرفاه ، ومن لهذه الأقوام التى جاءت تهنئه فى الصباح ؟ من لدرية الآن فى مكانها مع السفاكين ؟

إنا لله وإنا إليه راجعون . طريق واحد الذى أمامه .. طريق واحد ليس غيره .

وظل العمدة إلى الصباح يهذى صامتا وزوجته إلى جانبه تهذى فى ضجيج .. حائر كلاهما لا يدرى من أمر نفسه شيئا .. لا يتكلم العمدة ـــ إن تكلم ـــ إلا بقول واحد : طريق واحد ليس لى غيره :.

ويطلع الفجر فيصليه العمدة ، فيثوب إلى نفسه شىء من ثبات يكفيه ليطلع إلى الناس وليذهب إلى هذا الطريق الذى لا يعرف غيره .

قصد العمدة إلى لطيف بك .. فقد كان يعلم أنه يحتاج إليه اليوم لأن الانتخاب أصبح على الأبواب .. وقد كان يعلم أنه لن يقيله من تلك الكارثة النازلة به إلا لطيف بك . يقصد إليه رغم أنه لم يكن مواليا له فى الانتخابات وإن يكن لطيف قد أعفاه مما يوقعه بمن ناصبوه العداء فى الانتخاب ، فما كان ذلك منه إلا عن أمل فى المستقبل ، وعن ثقة أن هذا العمدة بالذات وهو فى جوار بلدته لابد أن يلجأ إليه فى يوم . وكان لطيف قد أزمع فى نفسه أن يحميه إذا لجأ إليه ، فقد كانت بلدة السلام بلدة يخطب ودها عند الانتخاب ..

بلغ العمدة دار لطيف بك فى باكر الصباح فوجده يقظان ..

ـــ وقعت من السماء فتلقنى .

ـــ تلقاك بروحى يا حضرة العمدة .. خير .

ـــ بنتى .. بنتى الوحيدة .. اختطفتها العصابة ، وأرسلت

تهددنى بقتلها إن أنا لم ابلغ النيابة أن ما ذكرته من الدفراوى كان كذبا ، وأننى لم أره .

وفكر لطيف هنيهة ثم قال للعمدة :

ـــ اذهب انت إلى البلد وغدا ستكون ابنتك عندك ، كنت مسافرا الآن ولكننى سأؤجل سفرى للمساء حتى أنهى هذه المسألة .

وراح العمدة يدعو للطيف بك ، وخرج من عنده ليس فى نفسه أمل إلا هذا الذى ألقاه إليه ملجؤه الأخير فى ثقة واطمئنان .

وما إن خرج العمدة حتى نادى لطيف أحد رجاله وقال له :

ـــ عند المغرب تذهب إلى بيت النمرود وتقول له : إن البكّ يريد كمالا أن يأتى إليه الليلة .. قبل الساعة الثامنة مساء ، لأنى مسافر بعد ذلكّ لأحضر قضية الغد فى مصر .

ـــ حاضر .

★ ★ ★

هم كمال بالخروج من منزله قاصدا إلى المغارة ، وإذا بالنمرود والزهار يدخلان ليبلغاه أن البك يطلبه .

ـــ لابد أنه يريدنا من أجل درية .

ـــ نعم لابد .

ـــ هلم لنراه .

ـــ أنذهب جميعنا ؟

ـــ نعم .. ثم نعود إلى المغارة لنأخذ مكان نور ، وحذار أن

يتكلم أحد منكم أمام لطيف : دعوا الكلام لى وحدى فقد أصبح بالغ الخطورة .

ويمضى جميعهم إلى البك فيجدونه منفسردا فى حجسرته ، ويستقبلهم مرحبا :

ـــ أهلا أبا كمال .. أهلا بالرجال .. كنت مسافرا الآن فانتظرت حتى تأتوا .

ويجيب كمال :

ـــ أهلا بك يا سعادة البك .. أطال الله عمرك وأبقاك .

ـــ ماذا فعلت من أجل منصور .. ؟ أريد أن أوكل عنه أحسن المحامين .

ـــ والله يا سعادة البك شهادة العمدة سيئة للغاية ، وأخشى الا يستطيع المحامى أن يفعل شيئا .

ـــ إذن فصحيح ما سمعته عن خطف بنت العمدة ؟

ـــ وماذا تفعل يا سعادة البسك .. ؟ منصـــور أخونا ومن لا يحمى أخاه فليس رجلا .

ـــ ولكن العمدة رجل مسكين .

ـــ أصابه مسكين . وماله لم يكن مسكينا فى الانتخابات وأمام النيابة .

ـــ على كل حال يا أبا كمال أنت رجل ، ونعم الرجل .

ـــ أبقاك الله يا بك ، وأطال عمرك .

ـــ الانتخابات قادمة قريبا ، وأنا أريدك أن تساعدنى فيهـــا .

ـــ تحت أمرك جميعنا يا بك .

ـــ لن أطلب منك إلا مسألة بسيطة .

ـــ مر .

ـــ بلدة السلام .

ـــ نعطى الأوامر يا بك ان تنتخبك جميعها .

ـــ لا .. هذا غير ممكن .. فإننا لن نستطيع أن نهدد بلدة بأجمعها فى الانتخابات . وخاصة أنتم لم تكشفوا عن أنفسكم فى القرية .. وقد جعلتم فكرتكم أمام القرية أن تأخذوا من الأغنياء لتعطوا الفقراء ، فما شأن هذا بالانتخابات ؟

ـــ فماذا نفعل .. ؟ نحن خدامك .

ـــ الطريقة المثلى أن نسترضى العمدة .

ـــ وكيف ؟ !

ـــ نرد له ابنته عن طريقى .

ـــ ومنصور ؟

ـــ أكبر محامى فى مصر سيترافع عنه

ـــ يا بك شهادة العمدة لا تنفع معها مرافعة .

ـــ هذا شأن المحامين .

ـــ ومن يدرى ماذا سيحدث لنا من هنا حتى يوم المحاكمة ؟

ـــ ماذا سيحدث ؟

ـــ ألا يجوز أن يشتد الضغط على منصور فيذكر أسماءنا ؟

ـــ منصور رجل ، ولا يمكن أن يسىء لإخوانه .

ـــ يا بك السجن صعب لا يرحم .

ـــ أنا واثق من منصور .

ـــ يا بك لا نستطيع .

ـــ أتخالفنى ؟

— العفو يا بكَ ؟ ولكنها مسألة حياة أو موت لنا جميعا .

— أنسيت أن العمدة طلب إلىّ أن أعطيه رجالا من رجالى ليحاربكم فرفضت .. رفضت له طلبا يهم البلدة كلها ، أما طلبه الخاص بابنته فإنى أرجو أن تمكننى من الوفاء به .. إنه لجأ إلىّ ولا يرضيكَ أن أخيب لاجئا إلىّ .

— حياتنا يا سعادة .. حياتى وحياة إخوانى هؤلاء .

— على كلّ حال هذا شأنكَ ، ولكن اعتبر صداقتنا منتهية إن أنت لم تصنع لى هذا المعروف الصغير .

— يا بكَ نحن خدامك ، لا نخرج عندكَ أبدا .. إلا فى هذه المسألة .

— أنتم أحرار .. ولكلّ منا أن يفعلّ ما بدا له .

— نحن خدامكَ يا بكَ ، نستأذن .

— مع السلامة .

ويقوم كمالَ فيقوم النمرود والزهار ، ويخرجون بعد أن يلقوا السلام فى أدب جم ، وفى جمود يعرفه لطيفَ منذ تعود مصاحبة أمثالهم .

وما إن يبتعد ثلاثتهم عنَ دار لطيفَ حتى يدعو لطيفَ إليه سليمان النطل كبير رجاله بعد موت الفرماوى ، فيقول له :

— تذهب أنت وعباس وفهمى الليلة إلى قرية السلام وتأخذون إليها الطريق الذى يدور حولَ بلدة الفسرايحة .. اركبوا السيارة الجيب واخفوها قبل بلدة السلام ، وانتظروا الثلاثة الذين خرجوا الآن من عندى .. اقتلوهم الثلاثة الليلة .. فإن طلع عليهم الصباح وهم أحياء فلا ترونى وجوهكم ، لأنهم

إن عاشوا فسيقتلونني .. اتفهم ؟ وحذار أن تسيروا وراءهم في الطريق التي ذهبوا منها فتقتلوهم في حدود بلدنا .. انتظروهم عند بلدهم واقتلوهم .. انا مسافر الآن إلى مصر .. اقرأ في جرائد الصباح عن مقتل الثلاثة .. اتفهم .. ؟!

وهل يفهم سليمان إلا هذا !!

★ ★ ★

خلا كمال والزهار والنمرود بالطريق ، وكانوا يسيرون في طريق يحفه من جانب مصرف جاف ليس في جوفه إلا أوشال ماء وكثير طين ، ومن الجانب الآخر حقول لطيف وقد رفعت عنها الذرة ، وذهب كمال ينظر في المصرف خشية أن يكون فيه أحد جالسا ، ونفض المكان جميعه بعينه ثم قال لرفيقيه :

ـــ هيا بنا نجلس في جرف هذا المصرف لأحدثكم في أمر خطير .

وجلس ثلاثتهم على جرف المصرف وقد ألقى رفيقا كمال إليه بآذانهما المصغية .

ـــ لقد عملت منذ أول يوم تكونت فيه الجماعة على أن اكسب ود لطيف ، فهو لا يعلم بأمر جماعة مثلنا تتكون قريبا منه إلا حاول أن يضمها إليه أو يقضي عليها .

فقال النمرود :

ـــ نعم .. هذا صحيح .

فقال كمال :

ـــ أما هذا الذى طلب إلينا ان نعمله الليلة فهو الفناء الاكيد لنا جميعا .. فلولا أن منصورا انتظر فى السجن حتى المحاكمة لأفشى سرنا ، وخاصة إذا عرف أننا اختطفنا بنت العمدة ورجعناها دون أن يغير العمدة شهادته .

فقال الزهار :

ـــ نعم .. أنت محق .. ولو كنت طاوعته لقلنا نحن لا .

فقال كمال :

ـــ فاعلموا إذن أننا إذا لم نقتل لطيفا فإنه سيقتلنا لا محالة .. فأنتم تعلمون أن أمثالنا فى هذه الناحية إما أن يكونوا أصدقاءه أو يكونوا فى القبور .

فجزع النمرود قائلا :

ـــ نقتل لطيفا ؟

وقال كمال فى ثبات :

ـــ وأى فرق بين لطيف وصلاح واحمد ؟ !! الرصاصة التى قتلت صلاحا أو أحمد تستطيع أن تقتل لطيفا . إنه الوحيد الذى يعرف أشخاصنا ، وقد تركناه غاضبا فإن لم نقتله فمصيرنا إلى القتل على يديه أو القتل على يدى الحكومة التى سيشى بنا عندها .

فقال النمرود :

ـــ ولكن الدنراوى هو الذى قتل صلاحا واحمد ، ومن لنا الآن بالدنراوى ؟

فقال كمال :

ـــ معنا من هو أمهر من الدفراوى .

وفهم الزهار انه يقصد إليه ، وخيل للنمرود انه المقصود . وتذكر فى تلك الآونة هذه الإشاعة التى كان قد أطلقها من أنه قتل زوجته الهاربة .

ويسأل النمرود فى تردد :

ـــ من .. ؟ من تقصد ؟

ويكون الزهار سارحا فى هذا الأمر الذى يوشك ان يلقى إليه .. فهو لم يقتل قبل اليوم وإن كان قد تمنى أن تتاح له الفرصة .. نعم إنه أمهر فى إصابة الهدف من الدفراوى ، ولكن الدفراوى مرن على قتل الناس ، أما هو ..

ويسمع الزهار كمالا وهو يقول فى صوت ملىء بالثقة :

ـــ الزهار يا أخى .. الزهار الذى تعلم إصابة الهدف فى العسكرية . ومعنا مسدسات لا تخيب أبدا .

ويقول النمرود :

ـــ ما رأيك يا زهار ؟ !

ويقول الزهار فى وجمة وتفكير :

ـــ أمركم .. كما ترون .

ويقول كمال :

ـــ نستلقى هنا على بطوننا ، فإذا جاءت سيارة لطيف فعليك يا زهار أن تصوب إلى الزجاج الخلفى للسيارة ، فأمامه تماما

سيكون راس لطيف فهو يجلس فى الوسط . أما انت وانا يا نمرود فسنضرب فى جوانب السيارة لنقتل من معه .. وسنكون نحن مختفين بينما سيكونون جميعهم ظاهرين لنا ..

— امرك .

وما هى إلا دقائق حتى ظهر نور السيارة قادما من بعيد ، فينام ثلاثتهم على بطونهم وقد اخفـاهم جـرف المصرف عن نور السيارة .. وعبرتهم السيارة ولكن لم تكد حتى انطلق مسدس الزهار فاصاب الزجاج حيث اراد كمال ، وانطلق مسدسا كمال والنمرود فاصاب كمال جانب السيارة من اعلى واصاب النمرود عجلة السيارة فنامت .

وحاول السائق أن يزيد سرعة السيارة ولكن السيارة قفزت منه قفزة ثم توقف محركها ، ففتحت ابواب السـيارة جميعـا ونزل منها اربعة انفار .. اما السائق ومن كان خلفه فقد نزلا إلى ناحية الحقل فتسترا بالسيارة وظلا يتدحرجان نائمين حتى بلغا الحقل فغاصا فى جدول من الماء يفصل بين الحقل والطريق . أما من كان إلى جانب السائق ومن كان خلفه فقد تدحرجا من السيارة إلى ناحية الكمين ، وحاولا ان يدخلا تحت السيارة فلم تتسع لهما فتدحرجا فى سرعة مجنونة إلى جرف المصرف ، وراح كمال يطلق عليهما الرصاص وهما فى طريقهما إلى المصرف فلم يصبهما ، بينما راح النمرود والزهار يصوبان نحو السيارة حيث امرهما كمال أن يصوبا ، وقد اصبحت ايديهما الضاربة منفصلة

كل الانفصال عن عقليهما ، فكل ما يدريان من أمر نفسيهما أنهما أمرا أن يضربا مواضع معينة من السيارة فهما يصوبان إلى حيث أمرا بغير تفكير ، وفى إصرار ذاهل مجنون .

أصبح رجلا لطيف فى الجرف مع الكمين ، فصـــوب إليهما كمال مسدسه ، ولكن الاضطراب كان قد أخذ يسيطر عليه ، وصوب الرجلان بندقيتهما اللتين كانتا معلقتـــين على كتفيهما إلى الكمين ، وما هى إلا طلقات قلائل حتى كان الكمين كله فى الطين قتيلا .. كمال والزهار والنمرود .

— ١٨ —

اشرق الصباح على قرية السلام ، وتهيأ العمدة يريد الذهاب إلى لطيفة فإذا بالأنباء تأتيه .. لقد أصيب لطيفة ومات الزهار والنمرود .. وكمال !!! كمال الطبال ! ؟ نعم كمال الطبال !!!

إذن فتلك هى العصابة .. فأين ابنتى ؟ .. لم يكن الأمر محتاجا لكبير ذكاء . لم يبق من منتدى بيت النمرود إلا نور .. يقصدون إلى بيته فيجدونه خاليا ، فيهمون أن يتركوه فإذا نور قادم ليبحث عن رفاقه الذين أخلفوا معه موعدهم وتركوه جائعا هو وحبيبته ، ويراه القوم قادما من وراء القرية من خلال أعواد الذرة فيمسكون به .. ويتداعى الرجل ، وتعود درية إلى بيت أبيهـــا .

لم يكن فخرى قد ترك القرية منذ قدم إليها فقد شغلته الحوادث أن يتركها ، وقد آن له الاوان أن يعود إلى دراسته ، ولكن عليه رسالة لابد أن يبلغها العمدة قبل أن يبرح القرية . هى رسالة اجمع عليها المثقفون فى القرية ولم يجدوا غير فخرى ليؤديها عنهم .. هى أمله وأملهم .. وما كان ليمضى عن القرية قبل أن يحقق أمله وامل إخوانه .

ذهب فخرى إلى العمدة فوجد الدوار مزدحما يغص بالمهنئين بعودة درية ، وبعودة السلام إلى قرية السلام .

ويميل فخرى إلى اذن ابيه :

ـــ ابى هلا استاذنت لنا العمدة ان نخلو إليه بضع لحظات ؟

ويقول الشيخ حسن فى ابتسامة تكاد تشرق ، لولا ما فى القلب من حرقة على موت ابنه الاكبر :

ـــ نعم يا ابنى .. اظن الوقت مناسبا .

ـــ مناسب تماما يا ابى .. افعل لا عدمتك

ويميل الشيخ حسن على اذن العمدة فيقوم ويقوم من ورائه فخرى والشيخ حسن ، ويفهم إخوان فخرى ما بسبيله أن يقال فى هذه الخلوة ، ويحاول آخرون أن يخلقوا فى اذهانهم اسبابا أخرى ، ويحسد كل منهم نفسه على ذكائه المتوقد واستنتاجه الصائب .

وفى الغرفة التى شهدت رفض العمدة لطلب الشيخ حسن يقول العمدة بعد أن استقر بهم المجلس :

ـــ نعم يا فخرى .. هى لك .. هى لك يا ابنى دون أن تطلب .

ولكن فخرى يقول كلاما آخر يذهل له أبوه ، فما كان هذا ما توقعه ، ويذهل له العمدة ايضا .. يقول فخرى :

ـــ ابقاك الله وابقاها لك .. يا حضرة العمدة ، ولكن ليس هذا ما أردتك فيه .

ـــ ففيم إذن يا ابنى ؟

ـــ لقد خرجت القرية من غمرة قاتلة فقدنا فيها ارواحا عزيزة علينا ، وفقدنا فيها كرامة هى اغلى عندنا من الارواح ، وفقدنا اموالا هى أهون ما فقدنا .. يا حضرة العمدة أنت وحدك المسئول عن كل هذا .. نريد منك نحن أهل قرية السلام أن تقسم يمينا على المصحف أمام الله ، أن يكون الحق شأنك منذ اليوم ، فلا ظلم ، ولا ميل ، ولا رشوة ..

سمع العمدة هذا الكلام فارتسمت على وجهه ابتسامة حلوة ، وصاح الشيخ حسن :

ـــ اخرس يا ولد .. امثل هذا يقا ...

فقاطعه العمدة فى لطف :

ـــ نعم يا شيخ حسن ، بل لا يقال إلا هذا .. اسمع يا فخرى .. بماذا همست فى أذنك آخر يوم كنت فيه هنا ؟

فتلجلج فخرى بعض الشى ، فقال العمدة :

ـــ قل ...

فقال فخرى :

ـــ قلت لى إنك تريدنى فى أمر جليل قد يغير حياتى جميعها .

فازداد ذهول الشيخ حسن ، وقال العمدة :

ـــ هذا ما اردتك فيه يا ابنى ..

ـــ ماذا ؟

ـــ انا لن اقسم على شىء يا فخرى ، ولن اكون العمدة بعد اليوم ابدا .. انا مسافر إلى مصر ، وســـاجعل الحاج إبراهيم الحسينى نائب عمدة بدلا منى حتى يتـولى الأمر العمدة الذى اخترته والذى سيحكم البلدة بما يرضى الله فيقيم فيها العـــدل ، ويمنع عنها الكارثة ويهيىء لها الخير .. سيكون الحاج إبراهيم نائبا عن العمدة الجديد الذى اخترته ، حتى يتم العمدة تعليمه فقد اخترته من ذوى التعليم العالى ..

فقال فخرى وهو لا يصدق ما يسمع ، يكاد يعرف من يعنيه العمدة ولكن لا يستطيع الوثوق :

ـــ من .. من ذلك العمدة ؟

ـــ أنت .. أنت .. يا فخرى .

« تمت »

رقم الإيداع ٣٨٤٦

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

الثمن ٢٠٠ قرش

To: www.al-mostafa.com